من تعدد صفة القول المأمور به في القرآن الكريم وأسراره البلاغية

إعــداد

الدكتورة

عايدة عبد العزيز محمد زعلوك

مدرس بقسم البلاغة بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالزقازيق – جامعة الأزهر

ملخص البحث

فهذا بحث يعالج تعدد صفة القول المأمور به في النظم القرآني آثرت دراسته وتحليله تحليلاً بلاغياً للوقوف على بعض أسرار صفة القول المأمور به، وتتبع الأدوات والأساليب البلاغية وإبراز الأغراض التي أدَّاها من خلال نظم الآيات، والدراسة فيه قامت على المنهج التحليلي الذي يهتم بدراسة النظم لبيان بلاغة وإعجاز القرآن الكريم.

وقد تجولت في البحث من خلال مقدمة وتمهيد وأربعة مباحث وخاتمة

- **المقدمة**: أوضحت فيها أهمية الموضوع وأسباب اختياره وخطته .
- **التمهيد**: ويشمل على التعريف بالقول وأنواعه
- **المبحث الأول**: القول المعروف.
- **المبحث الثاني**: القول البليغ واللين والكريم.
- **المبحث الثالث**: القول الميسور والسديد.
- **المبحث الرابع**: القول الحسن والأحسن.
- **الخاتمة**: ذكرت فيها أهم نتائج البحث.

Research Summary

This research deals with the multiplicity of adjectives in the Qur'anic systems. The study of the Qur'anic texts was influenced by a rhetorical analysis to find out some of the secrets of the adjective, and to follow the rhetorical tools and methods and to highlight the purposes that he performed through the systems of the verses. And the miracle of the Holy Quran.

I wandered through the research through an introduction, a preface, four investigations and a conclusion

• Introduction: She explained the importance of the subject and the reasons for his choice and plan. • Preface: includes the definition of the word and its types

• The first topic: the famous saying.

• The second topic: eloquent, soft and generous.

• The third topic: the good and the good.

• The fourth topic: the good and the better.

• Conclusion: You mentioned the most important search results.

مُقَدِّمَة

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب المبين معجزة خالدة إلى يوم الدين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد – ﷺ – وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد ....

فهذا بحث يعالج تعدد صفة القول المأمور به في النظم القرآني آثرت دراسته وتحليله تحليلاً بلاغياً للوقوف على بعض أسرار صفة القول المأمور به، وتتبع الأدوات والأساليب البلاغية وإبراز الأغراض التي أدَّاها من خلال نظم الآيات.

الدراسات السابقة: القول الحسن في القرآن الكريم دراسة تفسيرية موضوعية، دكتور محمد أحمد مصلح الوعيل – أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد، جامعة أبِ، مجلة جامعة الناصر، العدد السابع، يناير – يوليو ٢٠١٦.

والدراسة فيه قامت على المنهج التحليلي الذي يهتم بدراسة النظم لبيان بلاغة وإعجاز القرآن الكريم، وقد تجولت في البحث من خلال مقدمة وتمهيد وأربعة مباحث وخاتمة وفهارس:

- **المقدمة:** أوضحت فيها أهمية الموضوع وأسباب اختياره وخطته.
- **التمهيد:** ويشمل على التعريف بالقول وأنواعه.
- **المبحث الأول:** القول المعروف.
- **المبحث الثاني:** القول البليغ واللين والكريم.
- **المبحث الثالث:** القول الميسور والسديد.
- **المبحث الرابع:** القول الحسن والأحسن.
- **الخاتمة:** ذكرت فيها أهم نتائج البحث.
- المصادر والمراجع.
- فهرس الموضوعات.

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب

د/ عايدة عبد العزيز محمد زعلوك
مدرس بقسم البلاغة بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالزقازيق – جامعة الأزهر

التمهيد

القول لغة : الكلام واللفظ الذي نطق به اللسان يقول ابن منظور الأفريقي – رحمه الله – "القول كل لفظ قال به اللسان تاماً كان أو ناقصاً ...، قال ابن الأثير: "العرب تجعل القول عبارة عن جميع الأفعال وتطلقه على غير الكلام واللسان فنقول قال بيده أي: أخذ، وقال برجله أي، مشي وقال بالماء على يده أي: قلب وقال بثوب أي: رفعه، وكل ذلك على المجاز والإتساع"(١).

فيطلق القول والكلام واللفظ من حيث أصل اللغة بمعنى واحد لكن القول أشتهر بالمفيد بخلاف اللفظ، ولفظ القول يقع على الكلام التام وعلى الكلمة الواحدة على سبيل الحقيقة.(٢)

وقد تعددت معاني القول بتعدد المواطن التي ذكر فيها، فمنها:

١- القول المعروف له عدة معاني في القرآن الكريم.
٢- القول البليغ – ﷻ– عند وعظ المنافقين.
٣- القول الميسور في علاقة النبي – ﷺ – بقبيلته خاصة وبأمته عامة، وفي دعوة الطغاة والظالمين بصفة خاصة.
٤- القول الكريم للوالدين.
٥- القول السديد للمؤمنين في كل أقوالهم، وكان القول الحسن لدعوة المؤمنين والأحسن في دعوة غير المسلمين.

(١) لسان العرب (قال).
(٢) معجم المصطلحات والفروق اللغوية.

المبحث الأول

القول المعروف

الناظر في كتاب الله الكريم الحكيم يتبين أن كلمة "القول" وصفت بالمعروف في آيات من النظم الحكيم هي على حسب ترتيب المصحف كالتالي:

١- قال الله تعالى: "وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا عَرَّضۡتُم بِهِۦ مِنۡ خِطۡبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوۡ أَكۡنَنتُمۡ فِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ سَتَذۡكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗاۚ وَلَا تَعۡزِمُواْ عُقۡدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡكِتَٰبُ أَجَلَهُۥۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ "(١).

٢- " قَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ وَمَغۡفِرَةٌ خَيۡرٞ مِّن صَدَقَةٖ يَتۡبَعُهَآ أَذٗىۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٞ "(٢).

٣- قال الله تعالى: "وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا"(٣).

٤- قال ﷻ: "وَإِذَا حَضَرَ ٱلۡقِسۡمَةَ أُوْلُواْ ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينُ فَٱرۡزُقُوهُم مِّنۡهُ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا"(٤).

٥- قال ﷻ: "يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِۚ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا"(٥)

---

(١) سورة البقرة آية ٢٣٥.

(٢) سورة البقرة آية ٢٦٣.

(٣) سورة النساء آية ٥.

(٤) سورة النساء آية ٨.

(٥) سورة الأحزاب آية ٣٢.

٦- قال ﷻ: "طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ"(١).

تعددت معاني القول المعروف بتعدد المواطن التي ذكر فيها:

١- قال الله تعالى: "وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ" (٢)

يتناول النظم القرآني قضية المرأة المعتدة فيخاطب الرجال بأنه: لا جناح عليكم أيها الرجال المبتغون للزواج فيما عرضتم به من خطبة النساء بأن يقول أحدكم ... إني أريد التزويج، وإني لأحب امرأة من أمرها وأمرها، وإن من شأني النساء، ولو وددت أن الله تعالى كتب لي امرأة صالحة أو يذكر للمرأة فضله وشرفه.

فقد روى "أن رسول الله - ﷺ - دخل على أم سلمة وقد كانت عند ابن عمها أبي سلمة فتوفى عنها، فلم يزل يذكر لها منزلته من الله تعالى، وهو متحامل على يده حتى أثر الحصير في يده من شدة تحامله عليها وكان ذلك تعريضاً لها"(٣).

فحكم خطبة المرأة المعتدة تجوز خطبتها تعريضاً لا تصريحاً فيجوز التعريض لقوله تعالى: "وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ

(١) سورة محمد آية ٢١.
(٢) سورة البقرة آية ٢٣٥.
(٣) روح المعاني للآلوسي (٥٤٣/١).

ٱلنِّسَآءِ" أي تعرضوا للمتوفي عنها زوجها وهي في فترة العدة ولا يجوز التصريح لها حتى لا يحملها على الإخبار عن انقضاء العدة قبل فواتها وإن كانت عدتها بالأشهر.

(عرضتم) التعريض في الأصل إمالة الكلام عن نهجه إلى غرض منه وجانب واستعمل في أن تذكر شيئاً مقصوداً في الجملة بلفظة الحقيقي أو المجازي أو الكنائي ليدل بذلك الشيء على شيء آخر لم يذكر في الكلام"[١]

فـ " التعريض نحو قول الرجل للمرأة: إنك جميلة أو صالحة أو نافعة أو يقول : عسى الله أن يسر لي إمرأة صالحة لأنني أرغب بالزواج ونحو ذلك من الكلام الموهم أنه يريد نكاحها حتى تحبس نفسها عليه إن رغبت فيه ولا يصرح لها بالنكاح".[٢]

والتعريض في هذه الحالة على نحو ما قاله ابن عباس – ﷺ – " أن يقول إني أريد التزويج ، إني أحب امرأة من أمْرها، ومن أمْرها بعرض لها بالقول المعروف وفي رواية : وددت أن الله رزقني امرأة ونحو هذا ولا ينتصب للخطبة ... ما دامت في عدتها"، بأن يقول: إني لا أريد أن أتزوج غيرك أو إني أريد التزويج " التعريض في اللغة صد التصريح ومعناه أن يضمن كلامه ما يصلح للدلالة على مقصوده ويصلح للدلالة على غير مقصوده إلا أن إشعاره بجانب المقصود أتم وأرجح ، وأصله من عرض الشيء وهو جانبه كأنه يحوم حوله ولا يظهره ونظيره أن يقول المحتاج للمحتاج إليه جئتك لأسلم عليك ولأنظر إلى وجهك ولذلك قالوا: وحسبك بالتسليم مني تقاضياً " والتعريض قد يسمى تلويحاً لأنه يلوح فيه ما يريده ".[٣]

---

(١) روح المعاني للآلوسي (١ / ٥٤٣).

(٢) إعراب القرآن وبيانه محي الدين درويش (٣٥٤/١).

(٣) تفسير القرآن العظيم عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي ٣٨٣/٢ المحقق مصطفى السيد محمد، مؤسسة قرطبة – مكتبة أولاد الشيخ للتراث – الجيزة – ط الأولى – ١٤١٢ هـ – ٢٠٠٠ م.

وفرق بين التعريض والكناية ، والتعريض أن تذكر كلاماً يحتمل مقصودك ويحتمل غير مقصودك إلا أن قرينة الحال تؤكد حمله على مقصودك، فهو "ما يفهم السامع مراده بغير تصريح[١]، وهو "إبهام المقصود بما لم يوضع له حقيقة ولا مجازاً "[٢] والمشهور تسميته التعريض تلويحاً لأنه يلوح منه ما تريديه[٣]، أما الكناية ذكر الشيء بذكر لازمه كقولك فلان كثير الرماد كناية عن الكرم.

"ما عرضتم" عبر بالاسم الموصول "ما" والمراد كلام أي كلام عرضتم به.

"عرضتم" "عَرَّض" فَعّل "مشتق من العرض – بضم العين – وهو الجانب أي جعل كلامه بجانب، والجانب هو الطرف، فكأن المتكلم يحيد بكلامه من جادة المعنى إلى جانب ....." [٤]

(خِطْبة) حذف الفاعل منها والتقدير خطبتكم النساء ،والخِطبة بالكسر كالقِعدة والجِلسة ما يفعله الخاطب من الطلب، والاستلطاف بالقول والفعل، فقيل هي مأخوذة من الخطب أي الشأن الذي له خطر لما أنها شأن من الشئون ونوع من الخطوب، وقيل من الخطاب لأنها نوع مخاطبة تجرى بين جانب الرجل وجانب المرأة"[٥]

قال الفراء: "الخطبة مصدر بمعنى الخَطْب وهي من قولك : أنه لحسن الجِلْسَة والقِعْدَة أي: الجلوس والقعود ، والخطبة بالضم الكلام المشتمل على الوعظ والزجر وكلاهما من الخطب الذي هو الكلام وكانت سجاع يقال

(١) التوقيف على مهمات التعاريف محمد عبد الرؤوف المناوي١٨٥ تحقيق د/ محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، بيروت، الأولى – ١٤١٠هـ.
(٢) إرشاد العقل السليم (٢٣٢/١).
(٣) روح المعاني للآلوسي (٥٤٣/١).
(٤) روح المعاني للآلوسي (٥٤٣/١).
(٥) إرشاد العقل السليم (٢٣٢/١).

لها خِطْبٌ فتقول: "نِكْحٌ"[١]، وقيل هي "الذكر الذي يستدعى به إلى عقد النكاح أخذ من الخطاب وهو توجيه الكلام للإبهام"[٢]

و"خطب المرأة يخطبها خطباً وخِطبة بالكسر، والخطيب الخاطب والخطب الذي يخطب المرأة وهي خطبة التي يخطبها والجمع أخطاب"[٣]

"النساء" (اللام) للعهد الحضوري أي النساء التي مات عنها زوجها وهي في فترة العدة ، ولا يمكن أن تحمل أل للآستغراق لأن من النساء من يحرم التعريض بخطبتها كالمرأة في عدة الطلاق الرجعي.

(أو أكننتم)

أو هنا للإباحة أو التخيير أو التفصيل أو الإبهام على المخاطب وأكن في نفسه شيئاً أي : أخفاه ، وكن الشيء بثوب ونحوه أي ستره به والهمزة في أكن للتفرقة بين الاستعمالين كأشرقت وشرقت".[٤]

"لا جناح عليكم ، خطاب للجميع، حذف المفعول من أكننتم أي أكننتموه للإيجاز.

"أكننتم في أنفسكم" الإكنان: الإخفاء أي أضمرتم و سترتم في انفسكم خطبتهن، وهو كقوله تعالى: "**وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ**"[٥]

فـ " أكننتم في أنفسكم" أي "أسررتم في قلوبكم من نكاحهن بعد مضي عدتهن ولم تصرحوا بذلك لهن"[٦]

---

(١) الدر المصون (٢/٤٨١).
(٢) روح المعاني للآلوسي (١ / ٥٤٣).
(٣) إعراب القرآن / محي الدين درويش (١/٣٥٤).
(٤) الدر المصون (٢/ ٤٨١).
(٥) سورة القصص آية ٦٩.
(٦) روح المعاني للآلوسي (١/٥٤٣) .

وفائدة عطف الإكنان على التعريض في نفي الجناح مع ظهور أن التعريض لا يكون إلا عن عزم في النفس، فالمراد التنبيه على أن العزم أمر لا يمكن دفعه ولا النهي عنه فلما كان كذلك ، وكان تكلم العازم بما عزم عليه جبلة في البشر، الضعف بين الله موضع الرخصة أنه رحمة بالناس مع الإبقاء على احترام حالة العدة .

لماذا أخر الإكنان عن التعريض؟ للتنبيه على حرمات العدة وأنه نادر الوقوع " لأنه لو قدمه لكان الانتقال من ذكر الإكنان إلى ذكر التعريض جارياً على مقتضى ظاهر نظم الكلام في أن يكون اللاحق زائد المعنى على ما يشمله الكلام السابق، فلم يفتطن السامع لهذه النكتة فلما خولف مقتضى الظاهر علم السامع أن هذه المخالفة ترمي إلى غرض كما هو شأن البليغ في مخالفة مقتضى الظاهر "(١)

"علم الله أنكم ستذكرونهن" أي في أنفسكم ولا تصبرون على السكوت عنهن وعن إظهار الرغبة فيهن فلهذا رخص لكم التعريض"(٢).

"**علم الله أنكم ستذكرونهن**" فصل بين الجملة وما قبلها "**وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا عَرَّضۡتُم بِهِۦ مِنۡ خِطۡبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوۡ أَكۡنَنتُمۡ فِيٓ أَنفُسِكُمۡ**" لشبه كمال الاتصال فالجملة السابقة أثارت سؤالاً وهو ما سبب التعريض؟، فكان الجواب أنه "علم الله أنكم ستذكرونهن".

أي علم أنكم لا تستطيعون كتمان ما في أنفسكم فأباح لكم التعريض تيسيراً عليكم، وكان لتأخير ذكر أو أكننتم فائدة وهي التمهيد لقوله "علم الله أنكم ستذكرونهن" فجاء النظم بديعاً معجزاً .

(١)التحرير والتنوير (١/٤٥٣).
(٢)التحرير والتنوير (١/٤٥٠).

(لكـن): استدراك أي علـم الله أنكـم سـتذكرونهن سـواء صـراحة أو تعريضاً، لأن من يعزم على هذا الأمر لا يحلو من استخدامه أحد الطريقين إما الصراحة وإما العزم.

والمستدرك في قوله تعالى: "ولكن لا تواعدهن سراً " محذوف لدلالة سـتذكرونهن عليـه والتقـدير علـم الله أنكـم سـتذكرونهن فـاذكروهن ولكـن لا تواعدوهن نكاحاً بل اكتفوا بما رخص لكم.

"والاستدراك فيه وجوه أحدها : أنه استدرك من الجملة قبله وهي قوله: ستذكرونهن" فإن الذكر يقع على أنحاء كثيرة ووجوه متعددة فاستدرك منه وجه نهي فيه عن ذكر مخصوص ولو لم يستدرك لكان من الجائز لاندراحه نحن مطلق الذكر وهو نظير زيد سيلقى خالداً ولكن لا يواجهه بِشَرٍّ ، فلما كانت أحوال اللقاء كثيرة، من جمَلتها مواجهته بالشر، استدركت هذه الحالة من بينها والثاني – قاله أبو البقاء – قاله الزمخشري – أنه المستدرك منه جملة محذوفة قبل لكن تقديره: فاذكروهن ولكن لا تواعدوهن سراً وقد تقدم أن المعنى على الاستدراك من الجملة قبله فلا حاجة إلى حذف، وإنما الذي يحتاجه ما بعد لكن "وقوع ما قبلها من حيث المعنى لا من حيث اللفظ لأن نفي المواجهة بالشر يستدعي وقوع اللقاء[1]، "وجواز أن يكون استدراكاً عن "لا جناح" فإنه في معنى عرضوا بخطبتهن أو أكنوا في أنفسكم ولكن الخ". [2]

"سراً" أي لا تواعدوهن نكاحاً سراً فحذف المفعول للإيجاز وللعلم به، والمراد بالسر : به عقد الزواج في العدة سراً ويكون هنا مجاز مرسل علاقته المسببية فذكر سراً وأراد منه النكاح وبلاغته الإيجاز والمبالغة، "والسر: ضد الجهر وقيل يطلق على الوطء وعلى الزنا بخصوصية. [3]

(١) الدر المصون (٢ / ٤٨٢).
(٢) روح المعاني للآلوسي (٥٤٣/١).
(٣) الدر المصون (٤٨٢/١).

ويحتمل "أن يكون السر هنا صفة المواعدة على معنى ولا تواعدوهن مواعدة سرية ويحتمل أن يكون صفة للموعود به على معنى ولا تواعدوهن بالشيء الذي يكون موصوفاً بوصف كونه سراً"(١).

أي " لا تقل لها إني عاشق، وعاهديني ألا تتزوجي غيري ... وعن مجاهد: هو قول الرجل للمرأة: لا تفوتيني بنفسك فإني ناكحك وقال قتادة : هو أن يأخذ عهد المرأة وهي في عدتها ألا تنكح غيره فنهى الله عن ذلك وقدم فيه وأحل الخطبة والقول بالمعروف".(٢)

و(سراً) حال من فاعل (تواعدهن) أي تواعدوهن مستخفين بذلك، أو نعت لمصدر محذوف والتقدير: مواعدة سراً أو مفعول ثاني لتواعدوهن، أو حال من المصدر المعرف أي المواعدة مستخفية، ويجوز انتصابه على الظرفيه أي لا تواعدوهن في السر.

ولكن لا تواعدوهن سراً: عطف على الجملة السابقة؛ لتكون تعليلاً لانتفاء معناها وعدم تحققه ، وعبر بالفعل المضارع "تواعدوهن" ليدل على التجدد والدوام وهو مناسب لدلالة الفعل المضارع "تقولوا".

"لا تواعدوهن سراً إلا أن تقولوا قولاً معروفاً"

وقد سبق هذا الاستثناء بالنفي وهو في معنى النفي – لذا أفادِ الكلام الحصر وهو معنى المواعدة سراً إلا بالقول المعروف، فدلت جملة القصر على التقوية والتوكيد، والإيجاز؛ لأن جملة القصر في قوة جملتين إحداهما مثبتة والأخرى منفية، وخص القصر هنا بطريق النفي والاستثناء؛ لأنهم كانوا ينكرون المواعدة صراحة فنهي – ﷻ– عن المواعدة سراً ومن باب أولى جهراً دفعاً للريبة.

(١) مفاتيح الغيب للرازي (٥٨٧/٦).
(٢) تفسير ابن كثير (٦٣٨/١).

أي: "لا يصفن أحدكم نفسه في عدتها بالرغبة في النكاح والإكثار منه"[١]، قال ابن زيد "لكن لا تواعدوهن سراً" هو أن يتزوجها في العدة سراً، فإذا حللت أظهر ذلك"[٢] ، فـ "يحرم المواعدة على الزواج في السر؛ لأن في المواعدة مدرجة للفتنة ومظنة للقيل والقال، ولا تحرم المواعدة بقول معروف لا يستحيا منه في الجهر كذكر حسن العشرة وسعة الصدر للزوجات ونحو ذلك، فيكون المراد بالقول المعروف: هو التعريض لا التصريح أي لا تواعدوهن إلا بالتعريض.[٣]

وقد يكون المراد بالسر هنا كناية عن موصوف، أي لا تواعدوهن بالمستهجن، "وكني به عن النكاح أي الوعد الصريح بالنكاح فيكون سراً مفعولاً به لتواعدوهن ويكون الاستثناء منقطعاً؛ لأن القول ليس من انواع النكاح إذ النكاح عقد بإيجاب وقبول، والقول خطبة صراحة أو تعريضاً وهذا بعيد: لأنه فيه كناية على كناية"[٤].

الاستثناء قيل منقطع لأنه لا يندرج تحت القول بالسر، وقيل أنه متصل.

س: بم يتعلق حرف الاستثناء؟ جـ: بـ "لا تواعدوهن" أي لا تواعدوهن مواعدة قط إلا مواعدة معروفة غير منكرة أو مستثنى من مجرور محذوف أو لا تواعدوهن بشيء إلا بأن تقولوا ، ففي الجملة حذف إيجاز للمبادرة إلى ذكر المطلوب.

"**أن تقولوا**" حذفت الباء من "أن" وهي للسببية ليشير إلى بيان أهمية الخبر.

---

(١) معاني القرآن للفراء (١٥٣/١).
(٢) تفسير ابن كثير (٦٣٨/١).
(٣) المنير للزحيلي (٣٧٦/٢).
(٤) التحرير والتنوير (١ / ٤٥٤).

"إلا أن تقولوا قولاً معروفاً"

"وهو التعريض الذي عرض تجويزه والمستثنى منه ما يدل عليه النهي أي لا تواعدوهن نكاحاً مواعدة إلا مواعدة معروفة أو إلا مواعدة بقول معروف أو لا تقولوا في وعد الجماع أو طلب الامتناع عن الغير إلا قولكم قولاً معروفاً والاستثناء في جميع ذلك متصل، والانقطاع في المعنى أظهر على معنى لا تواعدوهن بالمستجهن ولكن واعدوهن بقول معروف لا يستحيا منه في المجاهرة من حسن المعاشرة والثبات".(١)

" ووقع في الموطأ : أن القاسم بن محمد كان يقول: في قوله تعالى: "وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا عَرَّضۡتُم بِهِۦ مِنۡ خِطۡبَةِ ٱلنِّسَآءِ"، أن يقول الرجل للمرأة وهي في عدتها من وفاة زوجها " إنك على لكريمة وإني فيك لراغب"(٢).

"والاستثناء في الآية استثناء من المفعول المطلق أي إلا وعداً معروفاً وهو التعريض الذي سبق في قوله "فيما عرضتم به" فإن القول المعروف من أنواع الوعد إلا أنه غير صريح ، وإذا كان النهي عن المواعدة سراً علم النهي عن المواعدة جهراً بالأولى، والاستثناء على هذا في قوله: "إلا أن تقولوا قولاً معروفاً" متصل، والقول المعروف هو المأذون فيه وهو التعريض فهو تأكيد لقوله: "ولا جناح عليكم فيما عرضتم به".(٣)

س: بأي شيء علق هذا الاستثناء؟ جـ: علق عن المواعدة في السر بقوله "لا تواعدوهن سراً" دفعاً للريبة واستثنى من ذلك أن يسر لها بالقول

(١) روح المعاني للآلوسي (١ / ٥٤٤).
(٢) التحرير والتنوير (١/٤٥١).
(٣) التحرير والتنوير (الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور ٢/ ٤٥٣ ، ٤٥٤ الدار التونسية للنشر، تونس ط الأولى ١٩٨٤.

المعروف " بأن يعدها في السر بالإحسان إليها والاهتمام بشأنها والتكفل بمصالحها حتى يصير ذكر هذه الأشياء الجميلة مؤكداً لذلك التعريض".[١]

"قولاً معروفاً"

"ولا تحرم المواعدة بقول معروف لا يستحيا منه في الجهر كذكر حسن العشرة وسعة الصدر للزوجات ونحو ذلك فيكون المراد بالقول المعروف هو التعريض لا التصريح أي لا تواعدوهن إلا بالتعريض ... فالقول المعروف غير المنكر شرعاً : وهو القول العف والإشارة الخفيفة والكلام اللطيف غير الجارح الذي يدخل في التعريض هو الجائز كما فعل النبي – ﷺ – مع أم سلمة بعد وفاة زوجها حيث ذكر لها منزلته عند الله تعالى"[٢].

"قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ"[٣]

تتكلم الآية عن إعطاء الصدقات للمحتاجين والسائلين، فالمن والأذى قد يتبعها؛ لعلم المتصدق بمن تصدق عليه فَيُذَّكره بتصدقه، والمقصود بالقول المعروف على نحو ما ذكره الإمام الآلوسي – رحمة الله – : أي كلام جميل يرد به السائل مثل: يرحمك الله، يرزقك الله، إن شاء الله تعالى أعطيك بعد هذا"[٤].

وقال ابن كثير رحمه الله – هو: "كلمة طيبة ودعاء لمسلم"[٥]

والمقصود بالقول المعروف هنا القول الحسن الجميل الذي يرد به على السائل والمراد به القول الحسن، وهو ضد الأذى"[٦] مثل: يرحمك الله ، يرزقك

---

(١) مفاتيح الغيب للرازي (٥٨٧/٦).

(٢) المنير للزحيلي (٣٧٨/٢).

(٣) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي البغدادي (٤٣/٣) دار أحياء التراث العربي – بيروت.

(٤) سورة البقرة آية ٢٦٣.

(٥) تفسير القرآن العظيم (٤٦١/٢).

(٦) التحرير والتنوير (٤٧/٣).

الله – إن شاء الله تعالى أعطيك بعد هذا"[١]، وهذا يدل على عناية الإسلام بالإنفاق وعلى مراعاة مشاعر المحتاجين والسائلين.

نكر " قول" للتقليل أي أقل القول المعروف الحسن خير من صدقة يتبعها أذى.

"**أذى**": "الأذى الإساءة والضر القليل للمنعم عليه قال تعالى: "لن يضروكم إلا أذى "والمراد به الأذى الصريح من المنعم للمنعم عليه كالتطاول عليه بأنه أعطاه أو أن يتكبر عليه لأجل العطاء بل تعبيره بالفقر، وهو غير الأذى الذي يحصل عن المن"[٢]

ومنبع الأذى أمران: كراهية المعطي إعطاء ماله وشدة ذلك على نفسه ورؤيته أنه خير من الفقير وكلاهما منشؤه الجهل ، فإن كراهية تسليم المال حمق؛ لأن من بذل المال أشرف مما بذله وظنه أنه خير من الفقير جهل بخطر الغني أي أن مراتب الناس بما تتفاوت به نفوسهم من التزكية لا بعوارض الغني والفقر التي لا تنشأ عن درجات الكمال النفساني"[٣].

"**ومغفرة**"

وصل الجملة بـ (الواو) العاطفة لتربط بين المغفرة وبين القول المعروف، وذلك للتوسط بين الكماليين مع عدم وجود مانع للعطف فقد اتحدتا الجملتان في الخبرية لفظاً ومعنى، وفائدة الخبر هو التقرير الذي يؤكد على الإنفاق مع مراعاة شعور المحتاجين والسائلين.

وقد يفهم من عطف (المغفرة) على (القول المعروف) أن المغفرة وهي التجاوز عن إساءة السائلين مصاحبة للقول المعروف ومع ذلك ذكرها الله – ﷻ – صراحة وقال: "ومغفرة" للإطناب ويسمى التتميم احتراس لئلا يتوجه السامع بأنه يعطي الصدقة دون سماح فيها ، الذي يفيد التأكيد على تحقيق

(١) روح المعاني (٤٣/٣) دار إحياء التراث العربي – بيروت.
(٢) التحرير والتنوير (٤٤/٢).
(٣) التحرير والتنوير (٤٤/٢).

وقوع المغفرة مع القول المعروف ، وأنه لزم مع القول المعروف المغفرة التي يقصد بها التجاوز عن إساءة السائل الملح في سؤاله، أو إجفاءه في الطلب كأن يقول أعطني حقي أي حق الله الذي عندك أو يقصد بالمغفرة أيضاً غفران الله الذنوب بسبب الصدقة المصحوبة بالقول المعروف.

نكر "مغفرة"؛ لدلالة على عظم أمرها وأنها تأتي على جميع ذنوبهم فتمحوها فالله ﷻ– غفر لهم ما كان منهم من الذنوب والخطايا.

"وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ"

صفتان من صفات الله – ﷻ– ؛ ليتصف بهما المؤمنون وهما: الغنى، ليعالج بخل وشح المعطي فالأموال التي معكم هي أموال الله في الحقيقة وأنتم مستخلفون فيها، فإذا علمتم ذلك هان عليكم الإنفاق امتثالاً لأمر الله – ﷻ–، والحلم: وهو الصفح والتجاوز عن إساءة السائلين، ووضحت لنا الآية القول المعروف خير من الصدقة التي يتبعها أذى، صدرت الآية الكريمة بالأسمية قول معروف، فـ "الافتتاح بالاسم أقوى وأشد تأثيراً في النفس ولا سيما إذا جاء على صيغة المبتدأ، لأن المبتدأ يلازم حالة التعريف مختصاً بالدلالة على الأشياء مجردة عن الزمن ..."(١).

والآية الكريمة تعتبر مقابلة بين القول المعروف والمغفرة ، وبين الصدقة التي يتبعها أذى، حيث قوبل القول المعروف والمغفرة ، بالصدقة التي يتبعها أذى.

وبلاغة المقابلة في الآية أضفت في المعنى الحيوية حيث إن المقابلات يستدعي بعضها بعضاً فلما ذكر القول المعروف الذي لا يصحبه مال وصحبته المغفرة وهي التجاوز عن الإساءة اتبعه بذكر الصدقة التي يصحبها المال مع الأذى وعدم التجاوز في الإساءة بالقول، ليبرز حقيقة المباينة والمغايرة بينهما ويجعل المتلقين على وعي تام بهذا التباين.

(١) أثر النزعة العقلية في القصيدة العربية د/ أحمد علي أحمد ٦٥

"فالمقابلة لها أثرها في بلاغة الكلام لما لها من أثر جليل في تثبيت المعنى وتقويته، وهي تضفي على القول رونقاً وبهجة وتقوى الصلة بين الألفاظ والمعاني"(١).

وفي الآية " تعريض" بأن الأذى يبطل ثواب الصدقات، والتعريض هو أن تذكر شيئاً تدل به على شيء آخر لم تذكره.

وقوله "**وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ**" تذييل فذكر – ﷻ– صفتين من صفاته – ﷻ– ؛ ليتخلق بهما المؤمنون وهما الغني والحلم فربط ختام الآية بمضمونها ليجعل المتلقى في اتصال مع بناء تركيب الآية.

فالجملة تذييل وهو: "تعقب جملة بجملة أخرى مستقلة تشتمل على معناها تأكيداً لمنطوق الأولى أو لمفهومها " (٢) وهذا التذييل مقرر لما قبله من الآية، ولذلك يبين لصاحب الصدقات أن الله غني فهو صاحب المال والصدقة وأن الإنسان خليفة عليه فيعطي الصدقات ويترفع عن المقابل فيهدأ شح نفس المعطي وأن الحلم يرجع إلى العفو والتجاوز عن إساءة السائلين.

وفي الآية ترغيب بالإنفاق في وجوه البر، وهو من مقاصد الشريعة الإسلامية ، فالمحتاجون والسائلون لهم حظ من الأموال إما على سبيل الوجوب كالزكاة التي يدفعها الأغنياء فهذا حقهم في أموال الأغنياء غير مهنين ولا ممنوعين كما أن الأغنياء عند دفعهم الزكاة وعدهم الله بالعطاء الكثير، وكذلك من حق المحتاجين الواجب الكفارات في حنث اليمين، والظهار، والإفطار في رمضان وغيره، أو يكون لهم إعطاء غير واجب كالصدقات والعطايا والهدايا والوصايا والقروض فغيره التي لها جزاء عند الله – ﷻ–".

(١) الباب البديع أ. د/ محمد شرشر ، صـ ٥٤ بتصرف
(٢) جواهر البلاغة : ٢٠١

وننتقل إلى آية آخرى من وصف القول بالمعروف: قال تعالى: "**وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا**"(١).

ينهي الحق – ﷻ– عن إتيان السفهاء الأموال، ويأمرنا بالتكفل بهم من مأكل وكسوة وقول معروف.

"ينهي الله تعالى عن تمكين السفهاء المبذرين من التصرف في الأموال التي جعلها الله للناس طريقاً لتقوم بها معايشهم من التجارب وغيرها"(٢).

"وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ ": "الخطاب إماء" للأولياء أو للآباء بدأت الآية بالأسلوب الإنشائي المعبر عنه بـ "النهي" وهو نهي حقيقي لأنه من أعلى إلى الأدنى على سبيل الوجوب والإلزام.

" **ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ** ": وعُرف بالموصولية (التي)؛ ليفيد أن أموال السفهاء عندهم هي التي جعل الله قياماً عندهم.

"السفية من السفة (السين والفاء والهاء) أصل واحد يدل على خفة وسخافة وهو قياس مضطرد فـ (السفه) ضد الحلم"(٣)، والمراد بالسفهاء كل من لم يكن له عقل يفي بحفظ المال، وهم الذين "ينفقون أموالهم فيما لا ينبغي إنفاقه او فيما لا طائل تحته"(٤).

جاء لفظ الجلالة "الله"؛ لتربية المهابة في النفوس، وفيه بث للطمأنينة في قلوب السفهاء بأن الله – ﷻ– هو الذي حكمهم عليكم.

---

(١) سورة النساء آية ٥.
(٢) التفسير المنير للزحيلي (٤/٢٧٥).
(٣) مقاييس اللغة (سفة) لابن فارس.
(٤) التفسير المنير للزحيلي (٤/٢٧٤).

"قِيَـمًا" مصدر قاماً أي قيامكم بالمال، مجاز مرسل علاقته المصدرية ذكر القيام والمراد المال فالمال تقوم به أمور المعاش والحياة.

"وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ" :عطف بحرف "ثم" للدلالة على التراخي، فهؤلاء احتياجهم الأول هو المأكل والمشرب ثم الكسوة، واستعارة تبعية في الحرف فيها أي منها.

"وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا" : والقول المعروف هو: ما تطيب به النفوس وتألفه وتلين الخطاب لهم، أي قولوا لهم "إن صلحتم ورشدتم سلمنا إليكم أموالكم وخلينا بينكم وبينها فاتقوا الله في أنفسكم وأموالكم"[١] قول ابن كثير – رحمه الله – " وهذه الآية الكريمة تضمنت الإحسان إلى العائلة ومن تحت الحَجْر بالفعل من الإنفاق في الكساوي والأرزاق بالكلام الطيب وتحسين الأخلاق".[٢]

أي أعلموهم وذكروهم بأن المال مالهم ، وأن منعهم من بعض المطالب فيه حفظ لمصالحهم ، وفيه الخير الكثير لهم ، " وقد شمل القول المعروف كل قول له موقع في حال مقاله ، وخرج عنه كل قول منكر لا يشهد العقل ولا الخلق ...، فالمعروف قد يكون مما يكرهه السفية إذا كان فيه صلاح نفسه".[٣]

فالقول الجميل يؤثر في القلب فيزيل السفه أما خلاف القول المعروف فإنه يزيد السفيه سفهاً ونقصاناً"[٤]، والمفسرون في القول المعروف وجوهاً (أحدها: ... إنه العدة الجميلة من البر والصلة ... ثانيها : الدعاء مثل أن يقول : عافانا الله وإياك وبارك الله فيك ... ثالثها ... علموهم مع إطعامكم

(١) جامع البيان للطبري (٧/ ٥٧٣)
(٢) تفسير القرآن العظيم (٣٥٢/٣)
(٣) التحرير والتنوير (٢٣٦/٤ / ٢٣٧)
(٤) مفاتيح الغيب (٤٩٦/٩)

وكسوتكم إياهم أمر دينهم مما يتعلق بالعلم والعمل ورابعها ..... الولي يعرفه أن المال ماله وهو خازن له وأنه إذا زال صباه فإنه يرد المال إليه .... وإن كان المولى عليه سفيهاً وعظه ونصحة ورغبة في ترك التبذير والإسراف [١]

وإلى آية أخرى من وصف القول بالمعروف: قال تعالى: "**وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا**"[٢].

"قيل نزلت في أرباب الأموال يقسمونها عندما يحضر الموت في وصية ...، ويحضرهم من القرابات محجوب عن الإرث فيوصون للأجانب ويتركون المحجوبين فيحرمون الإرث والوصية ، قال ابن عباس وابن المسيب وابن زيد وأبو جعفر ، وقيل نزلت في أرباب الفرائض يحضرهم أيضاً محجوب ، فأمروا أن يرضخوا لهم مما أعطاهم الله .. [٣]

هذه الآية أمر للورثة أن يعطوا من حضر القسمة عبر الذين لهم حق في الإرث من أولي القربى واليتامى والمساكين على سبيل الندب ؛ لأنه ليس في الصدقات الواجبة غير الزكاة والكفارات.

" وذكر المفسرون في القول المعروف الأمر في قوله : " فارزقوهم " على الوجوب فعن ابن عباس وعكرمة ومجاهد ، والزهري ، وعطاء والحسن والشعبي : أن ذلك حق واجب على الورثة المالكين أمر أنفسهم فهم المخاطبون بقوله " فارزقوهم"، وعن ابن عباس أيضاً وزيد بن أسلم: أن الأمر موجه إلى صاحب المال في الوصية التي كانت مفروضة قبل شرع الميراث واجب عليه أن يجعل في وصية شيئاً لمن يحضر وصيته من أولي القربى واليتامى والمساكين غير الذين أوصى لهم، وأن ذلك نسخ تبعاً لنسخ وجوب

(١) مفاتيح الغيب (٩ / ٤٩٧)
(٢) سورة النساء آية ٨
(٣) البحر المحيط لأبي حيان (٥٢٦/٣)

الوصية وهذا يقتضي تأويل قوله "القسمة" بمعنى تعيين ما لكل موصي له من مقدار، وعن سعيد بن جبير أن الآية في نفس الميراث وأن المقصود منها هو قوله: "وقولوا لهم قولاً معروفاً" قال: فقوله "فارزقوهم منه" هو الميراث نفسه".(١)

"**وإذا**" الواو استئنافية "وإذا" ظرف لما يستقبل من الزمان متضمن معنى الشرط يستعجل في الأمور المؤكدة والمحققة ، كما أن فيها معنى الفجائية أي إذا حضر ذي القربى واليتامى والمساكين فجأة ، فكان لأسلوب الشرط بلاغته في الترابط والتلازم في البناء التركيبي للآية حيث ربط بين السبب "حضر القسمة" والنتيجة " فارزقوهم وقولوا لهم قولاً معروفاً"

"**حضر**" جاء الفعل الماضي مقترناً بصيغة الشرط، لبيان تحقيق وتأكيد أولوا القربى واليتامى والمساكين القسمة.

"القسمة" جاءت القسمة معرفة باللام لإرادة العهد الذهني والمراد القسمة المعروفة أي أي قسمة التركة بين أربابها، قدم المفعول به "القسمة" لأهميتها وهي المطلوبة أمام الحاضرين.

يقول الإمام عبد القاهر عن التقديم والتأخير: "هو باب كثير الفوائد جم المحاسن واسع التصرف بعيد العناية لا يزال يفترلك عن بديعة ويفضي بك إلى لطيفة ولا تزال ترى شعراً يروقك مسمعه ويلطف لديك موقعه ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك أن قدم فيه شيء وحول اللفظ عن مكان إلى مكان".(٢)

قدم اليتامى على المساكين لضعفهم ولحاجتهم الشديدة حيث أنهم فقدوا عائلتهم، فكانت الصدقات فيهم أعظم أجراً.

وترى مراعاة النظير في الجمع بين اليتامى والمساكين فهما يقتربان في كثير من الصفات.

---

(١) التحرير والتنوير (٢٥١/١).

(٢) دلائل الإعجاز: ١٠٦.

س: ما وجه ترتيب الأصناف الثلاثة "أولي القربى – اليتامى – المساكين" ؟، أن القرابة: لأن القريب يرى هذا يأخذ وهذا يأخذ فتنطوق نفسه، ثم اليتامى: لضعفهم وحاجتهم عن المساكين.

"فارزقوهم منه": الفاء رابطة لجواب إذا ، والضمير في " منه " عائد إلى المقسوم المدلول عليه بالقسمة.

"وقولوا لهم قولاً معروفاً": أي قولوا لغير الورثة من أولي القربى واليتامى والمساكين "إن الله قسم المواريث" [١]

وهذا تسلية لبعضهم على ما حرموا منه من مال الميت كما كانوا في الجاهلية"، ويكون سبباً لدخول السرور عليهم وقيل: "فارزقوهم راجع إلى القربى الذين يرثون وقوله: "وقولوا لهم قولاً معروفاً" راجع إلى اليتامى والمساكين الذين لا يرثون وهذا القول محكي عن سعيد بن جبير"[٢]

وقيل المراد بالقول المعروف " أن لا يتبع العطية المن والأذى دل: "فارزقوهم راجع إلى القربى الذين يرثون وقوله: "وقولوا لهم قولًا معروفًا" راجع إلى اليتامى لقول أو يكون المراد الوعد بالزيادة والإعتذار لمن يعطه شيئاً".[٣]

وقيل: "أنه إذا حضر هؤلاء الفقراء من القرابة الذين لا يرثون واليتامى والمساكين قسمة مال جزيل ، فإن أنفسهم تشوق إلى شيء منه، إذا رأوا هذا يأخذ وهذا يأخذ ، وهم يائسون لا شيء يعطونه فأمر الله تعالى وهو الرءوف الرحيم أن يرضخ لهم شيء من الوسط يكون براً وجبراً لكسرهم كما قال الله تعالى: "وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ

(١) التحرير والتنوير (٢٥١/١).
(٢) مفاتيح الغيب للرازي (٥٠٣/٩).
(٣) مفاتيح الغيب للرازي (٥٠٤/٩).

وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ" [(١)]، وذم الذين ينقلون المال خفية خشية أن يطلع عليهم المحاويج وذو والفاقة كما أخبر عن أصحاب الجنة "إِذۡ أَقۡسَمُواْ لَيَصۡرِمُنَّهَا مُصۡبِحِينَ"، "إِنَّا بَلَوۡنَٰهُمۡ كَمَا بَلَوۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ إِذۡ أَقۡسَمُواْ لَيَصۡرِمُنَّهَا مُصۡبِحِينَ"[(٢)] أي بليل .."[(٣)].

"يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِۚ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا" [(٤)].

بعد أن فضل – عز وجل – نساء النبي ورفع قدرهن على النساء أراد – ﷻ– إرشادهن إلى أمور من الأخلاق قد تقع غفلة منهن لها آثارها، ولأنها أمور خفية قد تقضي إلى ما لا يليق بحرمتهن في نفوس البعض، فحذرهن من اللين في الكلام أو إلى الزيادة عن المعتاد في الكلام؛ لأنهن أزواج النبي– ﷺ– وهن أمهات المؤمنين حتى لا يطمع من في قلبه مرض، وأن يقولن قولاً معروفاً أي مألوفاً بين الناس وألا ينتهرن من يكلمهن أو يسمعنه قولاً بذيئاً.

بدأ الآية الكريمة بالنداء باستخدام الأداة الموضوعة لنداء البعيد " يا " دلالة على علو مكانتهن وارتفاع منزلتهن.

"إن اتقيتن وضع – عز وجل – التقوى في وسط الكلام ليفيد تهيئة النفوس، لتلقي الأوامر والنواهي بالامتثال والطاعة لله – ﷻ– بنفس راضية.

"**فلا تخضعن بالقول**": الفاء العاطفة حققت الترابط بين الآية؛ لإظهار المعنى.

---

(١) سورة الأنعام آية ١٤١.

(٢) سورة القلم آية ١٧.

(٣) تفسير القرآن العظيم (٣/٣٦٣).

(٤) سورة الأحزاب آية ٣٢.

ابتدأ الجملة بالنهي وهو حقيقي؛ لأنه من الأعلى إلى الأدنى على سبيل الوجوب والإلزام والغرض منه التحذير من لين الكلام؛ لأن النساء بطبيعتهن في كلامهن رقة ولين وإذا ظهر منها كلام لبعض الرجال يظن أنها تتحب إليه فتجترأ نفسه على مغازلتها وهذا مناف لحرمة المرأة العادية وأزواج النبي – ﷺ – أولى؛ لأنهن أمهات المؤمنين.

"**تخضعن**" الخضوع: الرقة، استعار الخضوع وهو التذلل للرقة استعارة تصريحية أصلية.

"بالقول" الباء للتعدية أي لا تخضعن القول أي تجعلنه خاضعاً، وموقع الباء هنا أحسن من موقع همزة التعدية لأن التعدية جاءت من باء المصاحبة ... قولك ذهبت بزيد، أنك ذهبت مصاحباً له فأنت أذهبته معك ... فلما كان التفكك والتزيين للقول يتبع تفكك القائل أسند الخضوع إليهن في صورة وأفيدت التعدية الباء"(١)، ويجوز أن تكون الباء بمعنى "في" أي لا تخضعن في القول.

"**فيطمع**": الفاء تدل على السرعة والحركة فبمجرد أن تلين في القول يطمع الذي في قلبه مرض، وعبر بالفعل المضارع " يطمع " لتصوير طمع الرجل عندما تلين المرأة في القول وتجدد هذا الفعل وحدوثه منه ، وجاء حرف الجر للتسجيل عليه بهذه الصفة وأنها متأصلة فيه وملازمة له لا تنفك فهي كالمرض المسيطر على الإنسان.

"**في**": الذي يفيد الظرفية؛ ليبين مدى تمكن المرض، وهو عدم الوازع الديني في قلبه ، فهو قد سكن قلبه وأقام فيه واحتواه، استعار المرض وهو ضعف القوة لاحتلال الوازع الديني بجامع الضرر في كل "استعارة تصريحية أصلية"، فاختلال الوازع الديني يهلك صاحبه كما يهلك المرض المريض، فهو مرض مسيطر عليه متمكن مستقر في قلبه.

---

(١) التحرير والتنوير (٩/٢٢).

وجاء الفاعل ليكون بطريق الموصولية "الذي في قلبه مرض" " فيطمع الذي في قلبه مرض "لذمه بما في حيز الصلة فعرف المسند إليه بالاسم الموصول "الذي"؛ ليزيد المعنى قوة ووضوحاً؛ لأنه يرد مبهماً فيشغل العقل والتفكير ويدعو إلى التأمل؛ ثم يظهر معناه بورود جملة الصلة، ومجيء المعنى مبهما ثم موضحاً وسيلة من وسائل توكيد المعنى وتقريره في ذهن السامع، فعرف المسند إليه بالموصولية؛ ليتمكن الخبر في ذهن السامع مع القصد إلى تشويق المخاطب إلى الخبر.

"**وقلن قولاً معروفاً**" المعروف هو الذي يألفه الناس بحسب العرف العام، ويشمل القول المعروف هيئة الكلام وهي التي سبق لها المقام ويشمل مدلولاته أن لا ينتهرن من يكلمهن أو يسمعنه قولاً بذيئاً من باب: فليقل خيراً أو ليصمت.(١)

ويقول ابن كثير رحمه الله – : "وقلن قولاً معروفًا" قال ابن زيد: قولاً حسناً جميلاً معروفاً في الخير، ومعنى هذا أنها تخاطب الأجانب بكلام ليس فيه ترخيم أي لا تخاطب المرأة الأجانب كما تخاطب زوجها"(٢).

جاءت في جملة (قلن قولاً معروفاً) بعد قوله تعالى: "فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض"، ليؤكد على ضرورة القول المعروف بعد عدم الخضوع بالقول.

اشتملت الآية الكريمة على ثلاثة أساليب إنشائية مختلفة فبدأت بالنداء "يا نساء النبي" بـ "يا" الموضوعة للبعيد إشارة إلى بعد ورفعة نساء النبي، والنداء يلفت الانتباه لما يذكر بعده ثم، النهي "فلا تخضعن بالقول" والمراد فيه النهي عن اللين بالقول، ثم الأمر "وقلن قولاً معروفاً" والمراد من الحث على القول المعروف وإظهاره، كما ترى أنه عطف جملة "وقلن قولاً معروفاً" على "لا

(١) التحرير والتنوير (٩/٢٢).
(٢) تفسير القرآن العظيم (١٥٠/١١).

تخضعن بالقول" بمنزلة الاحتراس لئلا يحسبن أن الله كلفهن بخفض أصواتهن كحديث السرار "[1].

فالنهي والأمر يتوجهان إلى شيء واحد وهو: إلزام التقوى؛ امتثالاً لأمر الله، ويبقى سؤال هنا وهو لما قدم النهي على الأمر؟ والجواب لأن –والله أعلم– أن "النهي عن الشيء أقوى في الدعوة إلى الاعتصام به وإلى مجانبته من الأمر بنقضيه" [2].

كما أن النهي آنس بالسياق زاجر عن التساهل في اللين بالقول، والأمر بالقول المعروف يفيد النهي عن ضده وهو الإساءة بالقول إلا أنه أخرجه مخرج الأمر، لأن الأمر بالشيء يستلزم النهي عن ضده، فوضع الأمر بالقول المعروف موضع النهي عن الإساءة بالقول للمبالغة من التحذير من اللين في القول للدلالة على أن ترك الإساءة من القول لا يكفي بل ينتهرن من يكلمهن أو يسمعنه كلاماً بذيئاً.

"في قلبه مرض" جعل المرض مختصاً بالقلوب ، ولذلك يظهر أثر القلب على عمل الإنسان قال رسول الله –ﷺ– " ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب" فالقلب مركز الإيمان.

"مرض" نكر مرض لإفادة العموم؛ ليظهر عليه اختلال الوازع الديني بجرأته على مغازلة من تكلمه.

فتقدم الجار والمجرور "في قلبه" على "مرض" للقصر حيث جعل المرض مختصاً بقلبه؛ ليؤكد من خلال القصر أن هذا المرض مستقر ومتمكن في قلوبهم وليس عارضاً سيزول.

(١) التحرير والتنوير (٩/٢٢).

(٢) صيغة الأمر والنهي في الذكر الحكيم: ٦٥، لمحمود توفيق –مطبعة الأمانة– القاهرة.

"وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُۙ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ ٢٠ طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ" (١).

أي قولكم قبل نزول فرض القتال كان طاعة وقول معروف، فإذا نزل الأمر كرهتموه وشق عليكم ، ولو أنهم صدقوا ما وعدوا الله به قبل نزول السورة بالقتال لوفوا بوعدهم وكان خيراً لهم في الدنيا والآخرة.

"**طاعة وقول معروف**" هذا خبر من الله تعالى ذكره عن هؤلاء المنافقين من قبل أن تنزل سورة محكمة، ويذكر فيها القتال وأنهم إذا قيل لهم: إن الله مفترض عليكم الجهاد قالوا: سمع وطاعة فقال الله – عز وجل لهم "فإذا أنزلت سورة" وفرض القتال فيها عليهم، فشق ذلك عليهم وكرهوه" فقولهم طاعة وقول معروف" قبل وجوب الفرض فإذا عزم الأمر كرهتموه وشق عليكم".(٢)

"طاعة وقول معروف" مبتدأ خبره محذوف والتقدير طاعة مخلصة، وقول معروف مبتدأ خبره محذوف والتقدير قول معروف خير لهم.

وقيل خبر لمبتدأ محذوف والتقدير الأمر أو أمرنا طاعة.

"**عزم الأمر**" أي جد صاحب الأمر، وصف صاحبه مجاز عقلي لا لاستحالة صدور الأمر من العزم، والتقدير عزم صاحب الأمر، فوصف الأمر بالعزم والعزم وصف صاحب الأمر والمراد بالأمر هنا هو أمر القتال، وفي ذلك ما فيه من الإيجاز والمبالغة، والمراد من "عزم" أي تحقق القتال، فعن طريق التصوير البياني "لاستعارة المكنية شبه القتال بإنسان يعزم على فعل، حذف المشبه به، ورمز إليه بشيء من لوازمه "عزم"، وإسناد عزم إلى الأمور

(١) سورة محمد آية ٢٠، ٢١.
(٢) جامع البيان (٢٢ / ١٧٥).

استعارة تخييلية وهي قرينة المكنية وهذا فيه من التشخيص ما فيه، "إذا" شرطية "عزم الأمر" جملة الشرط وجوابها فلو صدقوا الله"، ومن الممكن أن يكون جواب الشرط محذوفاً والتقدير فإذا عزم الأمر كرهوا القتال والمعنى: "فإذا عزم الأمر أي جد الحال وحضر القتال فلو صدقوا الله بأن أخلصوا له النية لكان خيراً لهم"[١] وعرف المسند إليه "الأمر" لإفادة العهد.

"**فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم**" أي صدقوا في وعدهم لكان خيراً لهم في الدارين فهم لم يصدقوا وهذا افتضاح لأمر المنافقين من الجهاد ففضح – ﷻ– أمرهم وكشف سرهم.

" لو" حرف "لو" في أصلة حرف امتناع لا متناع.

"فلو صدقوا" فيه وجهان على قولنا المراد من قوله "طاعة أنهم قالوا طاعة فمعناه لو صدقوا في ذلك القول وأطاعوا لكان خيراً لهم وعلى قولنا طاعة وقول معروف خيراً لهم وأحسن فمعناه لو صدقوا في إيمانهم وإتباعهم الرسول لكان خيراً لهم"[٢]

(إذا) ظرفيه وهي للمستقبل شرطية متضمنة معنى الشرط والجواب محذوف تقديره إذا عزم الأمر خالفوا ما وعدوا به وتخلفوا.

"**وصدقوا الله**" تدل أن الصدق مع الرسول – ﷺ – صدق مع الله – ﷻ– وأن الكذب على الرسول – ﷺ – كذب على الله وذلك لإلقاء الرعب والرهبة في نفوسهم.

عبر بلفظ الجلالة "الله" لأن المقام يحتاج إلى صفات الجلال الكامنة في اسم " الله "، ولتذكر قوة الله – ﷻ– وسلطانه وانتقامه.

و"المراد فلو صدقوا الله فيما زعموا من الحرص على الجهاد ولعلهم أظهروا الحرص عليه كالمؤمنين الصادقين، وقيل في إيمانهم لكان أي الصدق

(١) تفسير ابن كثير (١٧٨/٤).
(٢) مفاتيح الغيب (٢٨/ ٥٤).

خيراً لهم مما ارتكبوه وهذا مبني على ما في زعمهم من أن فيه خيراً وإلا فهو في نفس الأمر لا خير فيه"[1].

"**لكان خيراً لهم**" حذف اسم كان والتقدير "لكان الصدق خيراً لهم" والحذف للإيجاز.

نكر "خيراً " للتعظيم أي لوجدوا خيراً عظيماً كثيراً في الدارين، ففي الدنيا النصر، وفي الآخرة النعيم المقيم الذي أعده – ﷻ– للمجاهدين.

وهذه الآية دلت على حال المنافقين، وأن النفاق مرض في قلوبهم وأنهم لو كانوا التزموا الصدق لكان خيراً لهم فدلت الآية على علاج النفاق وهو الصدق.

وختمت الآية "لهم" ضمير الغائب ليقرع الآذان وينبه الأذهان ويلفت الانتباه إلى هؤلاء المنافقين وبيان خطرهم على المجتمع.

❁❁❁❁❁

(١) روح المعاني (١٣ / ٢٢٤).

المبحث الثاني

القول البليغ واللين والكريم

أولاً : القول البليغ :

قال تعالى: "فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا"(١).

تتكلم الآية عن المنافقين الذين "إذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً " (لأن الصدود عن ذلك يوجب غضب الله عليهم، فيوشك أن يصيبهم الله بمصيبة من غير فعل أجلى مثل انكشاف حالهم للمؤمنين فيعرفوا بالكفر فيصبحوا مهددين)(٢).

فأولئك المنافقون المذكورون في الآية أولئك يعلم الله ما في قلوبهم ولا يخفى عليه – ﷻ– خافية – فالله أعلم بظواهرهم وبواطنهم ، ولذلك أعرض عنهم وعظهم وأنههم عن النفاق "وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا" أي كلام بليغ في القول بالغ إلى نفوسهم.

"فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ"

" كيف" أي كيف حالهم إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم، وهنا إيجاز بالحذف حذف المسند إليه والتقدير كيف حالهم ليدل على فظاعة المصيبة التي تلحقهم؛ فأسلوب الاستفهام يتطلب البحث عن الإجابة، وهو ما يحرك الذهن نحو الموضوع بالاستفهام "فكيف إذا أصابتهم" فالفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها مراعي فيه ترتيب المسبب، وهو إذا أصابتهم المصيبة بما قدمت أيديهم، واستعمال أداة الاستفهام "كيف"؛ لبيان حال المنافقين؛ ولشد

(١) سورة النساء آية ٦٢، ٦٣.

(٢) التحرير والتنوير سورة النساء ١٠٧.

انتباه السامع حتى يكون مقبلاً على الموضوع شغوفاً به، ويقصد من الاستفهام التهويل أي كيف حالهم عندما تصيبهم مصيبة بسبب فعلهم فيجيئون لك معتذرين، كما يفيد الاستفهام أيضاً الوعيد والتهديد لكل من هم على شاكلتهم في النفاق.

وتركيب " كيف بك" يقال إذا أريدت بشارة أو وعيد تعجيباً أو تهويلاً، فمن الأول قول النبي – ﷺ – لسراقة بن مالك: "كيف بك إذ لبست سواري كسري " بشارة بأن سواري كسري سيقعان بيد جيش المسلمين، فلما أتى بسواري كسري في غنائم فتح فارس ألبسهما عمر بن الخطاب سراقة بن مالك تحقيقاً لمعجزة – النبي – ﷺ – ومن الثاني قوله تعالى: "فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه"، وقد جمع الأمرين قوله تعالى: "فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً"(١).

" إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ "

والمصيبة هي "انكشاف حالهم للمؤمنين فيعرفوا بالكفر فيصبحوا مهددين، أو مصيبة من أمر الله ورسوله والمؤمنين بأن يظهروا لهم العداوة وأن يقتلوهم فيجيئوا يعتذرون بأنهم ما أرادوا بالتحاكم إلى أهل الطاغوت إلا قصد الإحسان إليهم وتأليفهم إلى الإيمان والتوفيق بينهم وبين المؤمنين، وهذا وعيد لهم؛ لأن "إذا" للمستقبل، فالفعلان بعدها وهما "أصابتهم" و"جاؤوك" مستقبلان"(٢).

ثم جاءوك يحلفون بالله "إذا أصابتهم مصيبة" استخدم حرف التحقيق "إذا" مع الفعل الماضي "أصابتهم" الذي يفيد تحقق وقوع المصيبة.

"ثم جاءوك يحلفون" ثم عطف على الآية السابقة، وجاءت الجملة بالأسلوب الخبري الذي يخلو من التأكيد؛ لإثبات الحقيقة؛ ولتحقيرهم، وذمهم،

(١) التحرير والتنوير سورة النساء: ١٠٨.

(٢) التحرير والتنوير سورة النساء: ١٠٨.

وكشف أمرهم أمام المؤمنين فمهما أبطنوا النفاق في قلوبهم يظهره الله – ﷻ– للمؤمنين.

والفعل المضارع "يحلفون" قصد به تجدد، صورة المنافقين عند الحلف وإيضاحاً لموقفهم عند إصابتهم بالمصيبة، فيجيئوا يعتذرون بأنهم ما أرادوا بالتحاكم إلى أهل الطاغوت إلا بالتوفيق بينهم وبين المؤمنين، كما يجعل "الحلف" ملازماً للمنافقين في كل وقت وعبر الأزمنة فهو موقف ثابت مستمر فيه إظهار الإيمان وإبطان الكفر، والجملة "ثم جاءوك يحلفون" فيها دلالة على تكرار الحلف منهم.

"إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا وَتَوۡفِيقٗا"

"إن" تفيد النفي والتقدير "ما أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً" فكان أسلوب القصر عن طريق النفي والاستثناء – فارادتهم الإحسان والتوفيق فيه إنكار، فكان القصر منهم، لتأكيد وقوع الإحسان منهم والتوفيق.

وزاد الأمر تأكيداً تزيين الجملة بمراعاة النظير "إحساناً" و"توفيقاً".

" أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ "

"لا يعلم ما في قلوبهم من النفاق والغيظ والعداوة إلا الله"[1] "فيجازيهم عليه أو يجازيهم على ما أسروه من الكفر، وأظهروه من الحلف الكاذب"[2].

والجملة الخبرية ؛ لبيان حقيقة هؤلاء المنافقين والجملة الخبرية مركبة لتحرك الذهن نحو المطلوب، فبدأت بتعريف المسند إليه بالإشارة "أولئك" الموضوع للبعيد إيذاناً بتحقيرهم بالبعد وإشارة إلى سوء أفعالهم.

"أولئك" لتمييز المنافقين أكمل تمييز بما في حيز الصلة ولفضح أمرهم وكشف سرهم، وقد ذمهم بالتعريف بالموصولية "الذين" فهو وصف ملازم لهم بإظهار الإيمان والتوفيق وباطنة الكفر، عبر بـ "يعلم" وتعريفهم

(١) مفاتيح الغيب (١٠ / ١٢٤).
(٢) البحر المحيط (٣/٦٩٠).

بالموصولية "الذين يعلم" يفيد كشف سرهم وفضحهم، جاء المسند "يعلم" فعلاً مضارعاً لإبراز علم الله المطلق، المستمر الذي لا ينقطع؛ لأنه لا يعلم حقيقة قلوب المنافقين إلا من اتصف بصفة العلم المطلق وهو الله – ﷻ–.

عرف لفظ الجلالة "الله" باسمه الجامع؛ لتربية المهابة في النفوس، ولمناسبة المقام لكل صفات الجلال والجمال.

وقوله "يعلم الله ما في قلوبهم" تشير إلى أنه ينبغي على المسلمين تقوى الله وخشيته ومراقبته – ﷻ– في جميع الأعمال.

"بما في قلوبهم" لأنه يعلم السر وأخفى وينبغي على المسلمين توافق ظاهرهم مع باطنهم، والتعبير "بما" التي تفيد الموصولية؛ ليترك للمتلقى تخيل هذا الأمر فيجعله يتخيل قدر النفاق في قلوب المنافقين الذي لا يدرك كنه إلا الله – ﷻ.

"في قلوبهم" تخير حرف الجر "في"؛ ليفيد الظرفية وليؤكد مدى تمكن النفاق والإخلاف بالوعد في قلوبهم فهو فيهم مقيم وأن القلوب قد احتوته واشتملت عليه، وخص العلم بما في القلوب؛ لمناسبة حال المنافقين الذين يبطنون الكفر ويظهرون الإسلام فالله – ﷻ– علم بما في قلوبهم وهو المطلع عليهم، ولعل الآية الكريمة تشير إلى أول طريق النصر للمؤمنين وهو فضح هؤلاء المنافقين.

"فأعرض عنهم" أي عن معاتبتهم وقبول أعذارهم، والفاء فصيحة أفصحت عن شرط مقدر "أي: إذا كانت حالهم كذلك فأعرض عنهم ولا تقبل لهم عذراً "، استعار الإعراض وهو عدم الإلتفات إلى الشيء فيوليه عرض وجهه للترك والإمساك عن المحادثة بجامع الأعراض والضد في كل ، واشتق من الإعراض أعرض بمعنى أمسك عن المحادثة استعارة تصريحية تبعيه.

أمر الله ﷻ رسوله بأن يعاملهم بثلاثة أشياء: **الأول**: قوله: "فأعرض عنهم" وهذا يفيد أمرين أحدهما: أن لا يقبل منهم ذلك العذر ولا يعتد به، فإن من لا يقبل عذر غيره ويستمر على سخطه قد يوصف بأنه معرض عنه غير

ملتفت إليه. و**الثاني**: أن هذا يجري مجرى أن يقول له: أكتف بالإعراض عنهم ولا تهتك سترهم ولا تظهر لهم أنك عالم بكنه ما في بواطنهم فإن من هتك ستر عدوه وأظهر له كونه عالماً بما في قلبه فربما يجرئه ذلك على أن لا يبالي بإظهار العداوة فيزداد الشر ولكن إذا تركه على حاله بقى في خوف ووجل فيقل الشر"[١].

وقيل: المعنى بالإعراض معاملتهم بالرفق والأناة وفي ذلك تأديب لهم وهو عتابهم، ولا يراد بالإعراض الهجر والقطيعة، لأن في قوله تعالى: "وعظهم" يمنع من ذلك.

"ويلزم ذلك الإعراض عن طلبهم دم القتيل؛ لأنه هدر، وقيل عن عقابهم لمصلحة في استبقائهم ولا تظهر لهم علمك بما في بواطنهم الخبيثة حتى يبقوا على نيران الوجل".[٢]

الثاني: "وعظهم" انصحهم بالموعظة بكل وسيلة؛ رجاء صلاح حالهم وخوّفهم بعذاب الله، وأنكر عليهم فعلهم وأنههم عن النفاق والشر" الوعظ: الأمر بفعل الخير وترك الشر بطريقة فيها تخويف وترقيق يحملان على الإمتثال، والاسم منه الموعظة"[٣].

عطف "وعظهم" على "اعرض عنهم"؛ للتوسط بين الكمالين؛ لإتفاق الجملتين في الإنشائية لفظاً ومعنى، "والمراد أنه يزجرهم عن النفاق والمكر والكيد والحسد والكذب ويخوفهم بعقاب الآخرة، كما قال تعالى: " **ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ** "[٤].

---

(١) مفاتيح الغيب (١٠/١٢٤).
(٢) روح المعاني (٣/٦٧).
(٣) التحرير والتنوير(١٠/ ١٢٤).
(٤) سورة النحل آية ١٢٥.

الثالث: "**وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا**" أي: قل لهم خالياً لا يكون معهم أحد؛ لأنه أدعى إلى قبول النصيحة ... أو قل لهم في شأن أنفسهم ومعناها قولاً بليغاً مؤثراً واصلاً إلى كنه المراد"(١).

الجار والمجرور "في أنفسهم" إما أن يكون متعلقاً بـ "بليغاً"، فقدم للإهتمام بإصلاح أنفسهم" لأن أمره بتهديدهم بلغ صميم قلوبهم وسياق التهديد في قوله: فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم "ثم جاءوك يشهد لهم" أو يكون متعلقاً بفعل "قل لهم" أي قل لهم قولاً بليغاً في شأن أنفسهم الخبيثة وقلوبهم المنطوية على الشر قولاً بليغاً ويلائمه من السياق قوله: "أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم" من دواخل الغي ونوازع الضلال"(٢)

في "ظرفية" وقيل "في أنفسهم" متعلقان بمحذوف حال أي حالة كون المقول سراً لا يتجاوز نفوسهم ولا يتعداها، وتشهد له سيرة النبي – ﷺ – ويتلاءم مع حرص النبي على الستر والملاينة ، رجاء أن يتوبوا إلى الرشد ويخلدوا إلى الصواب ... والنصيحة في السر أنفع منها في العلانية"(٣).

فكما أمر الله – ﷻ– رسولنا – ﷺ – بالإعراض عنهم ، وبوعظهم، أمره أيضاً بالقول البليغ، "وفيه مسألتان: المسألة الأولى: في قوله: في أنفسهم وجوه: الأول: أن في الآية تقديماً وتأخيراً أو التقدير: وقل لهم قولاً بليغاً في أنفسهم مؤثراً في قلوبهم يغتمون به اغتماماً ويستشعرون منه الخوف استشعاراً، الثاني: أن يكون التقدير وقل لهم في معنى أنفسهم الخبيثة وقلوبهم المطوية على النفاق قولاً بليغاً وأن الله يعلم ما في قلوبكم فلا يغني عنكم إخفاؤه فطهروا قلوبكم من النفاق وإلا أنزل الله بكم ما أنزل بالمجاهرين بالشرك أو شراً من ذلك وأغلظ، الثالث: قل لهم في أنفسهم خالياً بهم ليس معهم غيرهم على سبيل

(١) روح المعاني (٣ : ٦٦).
(٢) إعراب القرآن وبيانه (٢/٢٤٧).
(٣) إعراب القرآن وبيانه (٢/٢٤٨).

السر لأن النصيحة على الملأ تقريع وفي السر محض المنفعة، المسألة الثانية: في الآية قولان: أحدهما: إن المراد بالوعظ التخويف بعقاب الآخرة، الثاني: أن القول البليغ صفة للوعظ فأمر تعالى بالوعظ"[١].

"**وقل لهم**": الأسلوب الإنشائي "الأمر" جاء خطاباً للرسول – ﷺ – والأمر على حقيقته؛ لأنه من الله – ﷻ– إلى رسوله – ﷺ – على سبيل الوجوب والإلزام.

"**قولاً بليغاً**": البلاغة : حسن البيان وقوة التأثير[٢] وعند علماء البلاغة: مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته.

"والبلاغة على وجهين: أحدهما: أن يكون بذاته بليغاً وذلك بأن يجمع ثلاثة أوصاف: صواباً في موضوع لغته، وطبقاً للمعنى المقصود به، وصدقاً في نفسه، ومتى احترم وصف من ذلك كان ناقصاً في البلاغة والثاني: أن يكون بليغاً باعتبار القائل والمقول له وهو: أن يقصد القائل به أمراً ما فيؤده على وجه حقيق أن يقبله المقول له"[٣]، و"قولاً بليغاً" أي "وانصحهم فيما بينك وبينهم بكلام بليغ رادع لهم"[٤].

فـ "البليغ فعيل بمعنى بالغ بلوغاً شديداً بقوة أي بالغاً إلى نفوسهم وقال الفخر الرازي – رحمه الله – : "القول البليغ صفة للوعظ، فأمر تعالى بالوعظ ثم أمر أن يكون الوعظ بالقول البليغ وهو أن يكون كلاماً بليغاً طويلاً حسن الألفاظ حسن المعاني مشتملاً على الترغيب والترهيب والإحذار والإنذار والثواب والعقاب، فإن الكلام إذا كان هكذا عظم وقعه في القلب، وإذا كان مختصراً ركيك اللفظ قليل المعنى لم يؤثر ألبته في القلب"[٥].

---

(١) مفاتيح الغيب (١٠/١٢٤).
(٢) المعجم الوسيط "بلغ".
(٣) تاج العروس (٢٢/٤٤٧).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٤/١٣٩).
(٥) مفاتيح الغيب (١٠ / ١٢٤).

"والقول البليغ هو الزجر والردع، قال الحسن: هو التوعد بالقتل إن استقاموا حالة النفاق ... ومعنى بليغاً أي مؤثراً فيهم[١]، "يغتمون به اغتماماً ويستشعرون منه الخوف استشعاراً وهو التوعد بالقتل والاستئصال، والإيذان بأن ما انطوت عليه قلوبهم الخبيثة من الشر والنفاق بمرأي من الله تعالى ومسمع غير خاف عليه سبحانه – وإن ذلك مستوجب لما تشيب منه النواصي وإنما هذه المكافأة والتأخير لإظهارهم الإيمان واضمارهم الكفر ولئن أظهروا الشقاق وبرزوا بأشخاصهم من نفق النفاق لتسامرونهم السمر والبيض وليضيقن عليهم رحب الفلا بالبلاء العريض".[٢]، "قولاً" : عبر بالمصدر للمبالغة والتأكيد على القول.

ثانياً: القول البليغ:

وهو الكلام الدال على معاني الترغيب والعرض واستدعاء الإمتثال بأن يظهر المتكلم للمخاطب بأن له من سداد الرأي ما يتقبل به الحق ويميز به بين الحق والباطل.

قال تعالى: "**فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ**"[٣].

"**فقولاً**" : بدأ الآية الكريمة بالأسلوب الإنشائي فعل الأمر وهو أمر حقيقي على سبيل الوجوب والإلزام دل على العناية والإهتمام بالسامع ؛ ليوقظه وينبه لما سيلقى بعده.

"**قولاً لينا**": "اللين ضد الخشونة يقال في فعل الشيء اللين؛ لأن الشيء يلين ليناً ولياناً وتلين وشيء لين وليْن مخفف منه والجمع ألينا، وفي الحديث "يتلون كتاب الله لينا" أي سهلاً على ألسنتهم"[٤]

(١) البحر المحيط (٦٩١/٣).
(٢) روح المعاني (٦٧/٣).
(٣) سورة طه آية ٤٤.
(٤) لسان العرب (لين).

"واللين حقيقة من صفات الأجسام وهو: رطوبة ملمس الجسم وسهولة ليه، وضد اللين الخشونة، ويستعار اللين؛ لسهولة المعاملة والصفح"[١]، "والملاينة: المداهنة"[٢].

الفاء عاطفة و"تلين القول مما يكسر سورة عناد العتاة ويلين قسوة الطعاة ويعلم من ذلك أن الأمر بالإنة القول ليس لحق التربية كما قيل والمعنى كما قال ابن عباس – رضي الله تعالى عنهما: لا تعنفاه في قولكما وارفقا به في الدعاء ويتحقق ذلك بعبارات شتى منها ... إنا رسولا ربك ... ومنها هو "فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ١٨ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ" [٣]، وفي الرفق في الدعاء فإنه في صورة العرض والمشورة وقيل كنياه واستدل به جواز تكنيه الكافر..." [٤].

"قولاً ليناً"

القول اللين الذي أمرهما الله أن يقولاه لفرعون هو أن يكنياه " قال ثنا عليّ بن صالح، عن السدىّ: "فقولا له قولاً ليناً" قال: كنياه"[٥]، "وهو من ذوي الكني الثلاث أبو العباس وأبو الوليد وأبو مرة"[٦] واعترض على هذا "لأن خطابه بالكنية أمر سهل فلا يجوز ان يجعل ذلك هو المقصود من قوله: فقولا له قولاً ليناً، بل يجوز أن ذلك من جملة المراد"[٧].

(١) التحرير والتنوير (٢٢٥/١٦).
(٢) تاج العروس (٣٦ / ١٣٥).
(٣) سورة النازعات آية ١٨، ١٩.
(٤) روح المعاني للآلوسي (٥٠٨/٨).
(٥) جامع البيان الطبري (١٨ : ٣١٣).
(٦) مفاتيح الغيب (٥٢/٢٢).
(٧) مفاتيح الغيب (٥٢/٢٢).

وقيل الكلام اللين قوله تعالى: "فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ" (١) وقيل قوله تعالى: "فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ"(٢) فهي دعوة في صورة عرض.

وقيل "أن تعداه شباباً لا يهرم بعده وملكاً لا ينزع منه إلا بالموت وأن يبقى له لذة المطعم والمشرب والمنكح إلى حين موته" (٣)، "واعترضوا على هذا هذا فقيل لو حصلت له هذه الأمور الثلاثة في هذه المدة الطويلة لصار ذلك كالإلجاء إلى معرفة الله تعالى وذلك لا يصح مع التكليف"(٤).

س: لِمَ أمر الله – ﷻ– موسى وأخاه هارون بالقول اللين مع فرعون الجاحد الكافر؟

"الجواب لوجهين: الأول: أنه عليه السلام كان قد رباه فرعون فأمر أن يخاطبه بالرفق رعاية لتلك الحقوق وهذا تنبيه على نهاية تعظيم حق الأبوين، الثاني: أن من عادة الجبابرة إذا غلظ لهم في الوعظ أن يزداد عتوا وتكبرا والمقصود من البعثة حصول النفع حصول زيادة الضرر فلهذا أمر الله تعالى بالرفق"(٥).

وقيل "قولاً ليناً" "لا تعنفاً في قولكما"، وقيل أن القول اللين لا إله إلا الله ولينه خفته على اللسان، وقيل أمرهما سبحانه بأن يقدما له الوعد على الوعيد من غير تعيين.

---

(١) سورة النازعات آية ١٨ ، ١٩.
(٢) سورة طه آية ٤٧.
(٣) مفاتيح الغيب (٥٢/٢٢).
(٤) مفاتيح الغيب (٥٣/٥٢).
(٥) مفاتيح الغيب للرازي (٥٢/٢٢).

"والقول اللين: الكلام الدال على معاني الترغيب والعرض واستدعاء الامتثال، بأن يظهر المتكلم للمخاطب أنّ له من سداد الرأي ما يتقبل به الحق ويميز به بين الحق والباطل مع تجنب أن يشتمل على تسفيه رأي المخاطب أو تجهيله، فشبه الكلام المشتمل على المعاني الحسنة بالشيء اللين".[١]

وفي الآية إشارة إلى الأمر بالملاطفة واللين حتى مع من كان في غاية العتو والاستكبار والعصاة لأنه يعطي المخاطبين مجالاً للتأمل والتفكير فيكون الكلام له وقع وتأثير في النفوس، ويوصل إلى الغاية المطلوبة؛ لأن النفس البشرية بطبيعتها ترغب إلى الخير ولين الجانب لأنه قد يزاد الموقف إلى الرد السيء إذا كان الكلام فيه عنف وقوة فيكون الكلام فيه التحدي والحماس والإثارة والصخب وهذا القول هو ما يجب أن نخاطب به ذوي المكانة الرفيعة حتى يتحقق المطلوب، أو الدعوة إلى العصاة الطغاة فيكون بالحكمة والموعظة الحسنة.

لعله يتذكر أو يخشى" أي يتذكر بما بلغتما، ويخشى اختلف في معنى لعل:

١- قيل معناها الإستفهام " أي فقولاً له قولاً ليناً فانظرا هل يتذكر ويراجع أو يخشى الله"[٢]، "وهذا قول مردود أنه يستحيل الإستفهام في حق الله تعالى"[٣].

٢- وقيل معنى "لعل" هنا كي أي قولاً له قولاً ليناً كي يذكر أو ليتذكر، "وهذا قول الفراء قال: كما تقول: "اعمل لعلك تأخذ أجرك أي كي تأخذ أجرك"[٤] والمراد أن تكونا راجين لأن يتذكر أو يخشى.

٣- "أن يكون الترجي هنا على بابه وذلك بالنسبة إلى المرسل وهو موسى وهارون أي اذهبا على رجائكما في إيمانه وباشراً الأمر مباشرة من

(١) التحرير والتنوير (٢٢٥/١٦).
(٢) جامع البيان الطبري (٣١٤/١٨).
(٣) إعراب القرآن وبيانه (١٩٨/٦).
(٤) إعراب القرآن وبيانه (١٩٨/٦).

يرجو ويطمع أن يثمر عمله فهو يفرغ جهده ويبذل ما في وسعه ويستحيل أن يرد ذلك في حق الله تعالى إذ هو عالم بالعواقب والمغاب، وعن سيبويه " كل ما ورد في القرآن من لعل وعسى فهو من الله واجب "وهذا صريح في الترجي يستحيل بقاؤه على معناه في حق الله تعالى"(١).

٤- "وحاصل الكلام باشراً الأمر مباشرة من يرجو ويطمع أن يثمر عمله ولا يخيب سعيه فهو يجتهد بطوعه ويحتشد بأقصى وسعه"(٢).

ثالثًا : القول الكريم :

قال الله تعالى: "**وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا**" (٣).

افتتحت الآية بفعل القضاء "قضى" الواجب الإلزام وأن هذا أمر جازم وليس بمعنى التقدير كقوله تعالى: "وقضينا"؛ لتمثيل الأمة الخطاب وكان أول المقضى هو توحيد الله ﷻ وإفراده بالعبادة وهذا الخطاب موجه للمسلمين فكان الأمر بعبادة الله وحده.

(رَبُّكَ) الخطاب للنبي – ﷺ–

"أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ" أن مصدرية ولا نافيه والمراد النهي ، ويجوز أن تكون ناهية ... ولا ينافيه المصدر ... أو أي لا تعبدوا ... على أنَّ أنْ مفسرة لتقديم

(٢) إعراب القرآن وبيانه (٤٩٨/٦).
(٢) روح المعاني للآلوسي (٨ / ٥٠٨ ، ٥٠٩).
(٣) سورة الإسراء آية ٢٣.

ما تضمن معنى القول دون حروفه ... وجوز بعضهم أن تكون مخففة واسمها ضمير شأن محذوف ولا ناهية ..."[١].

"أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ" : ابتديء التشريع بالنهي عن عبادة غير الله؛ لأن ذلك هو أصل الإصلاح؛ لأن إصلاح التفكير مقدم على إصلاح العمل ..."[٢].

قصر صفة العبادة على الله – ﷻ– قصراً حقيقياً ، فما عدا المقصور عليه وهو " الله " – ﷻ– غير معبود ، فالعبادة ثابتة له – سبحانه – ومنفيه عمن سواه ، والقصر هنا عن طريق النفي والاستثناء ، فاستقرت دلالة العبادة لله – ﷻ– في ذهن المتلقى عن طريق القصر ؛ لتنفي أي معبود لهذا الأسلوب، فجملة القصر في قوة جملتين إحداهما مثبتة والأخرى منفية أفادت الإيجاز والتأكيد.

"تَعْبُدُوٓاْ" الخطاب لجميع الخلق وهو تعريض بالمشركين، أي توحيد الله – سبحانه – فهو – ﷻ– واحد في ذاته وفي صفاته وأفعاله والتوحيد هو القاعدة الأولى التي لا غنى عنها قبل أي عبادة أخرى من صلاة وصيام وزكاة وحج ، فيجب أولاً ألإعتراف بوجدانية الله – ﷻ– وأنه هو الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، وأنه لا إله إلا الله وأنه لا مشرع لهم غيره – ﷻ–.

"وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ": بر الوالدين مقرون بتوحيد الله – ﷻ– بالعبادة؛ ليدل على وجوب بر الوالدين.

(١) روح المعاني للآلوسي سورة الإسراء صـ ٥٣.
(٢) التحرير والتنوير سورة الإسراء آية ٢٣ صـ ٦٧.

أل في "الوالدين" للإستغراق أي والد كل مكلف، متعلق بمضمر أي وتحسنون أو أحسنوا[١]، "الإحسان هو: أرقى درجات التعامل سواء أكان ذلك مع الله سبحانه أم مع البشر وهو يعني مع الوالدين برهما، وحفظهما، وصيانتهما وامتثال أمرهما ... وترك السلطنة عليهما"[٢].

والإحسان إلى الوالدين "ألا يؤذيهما البته ويوصل إليهما من المنافع قدر ما يحتاجان إليه فيدخل فيه دعوتهما إلى الإيمان إن كانا كافرين وأمرهما بالمعروف على سبيل الرفق إن كان فاسقين"[٣]، فالإحسان بالمعاملة الكريمة الطيبة في أعلى درجاتها وأفضل أحوالها وتكون نابعة من القلب بحب وعطف وتكريم ورداً للجميل، ولذا برهما والإحسان إليهما من أفضل الأعمال وعقوقهما من الكبائر.

عطف "وبالوالدين إحساناً" على قوله "ألا تعبدوا إلا إياه" عطف الأمر على النهي للمبالغة في مراعاة حقوق الوالدين وليدل على أن ترك الإساءة فقط ليس هو المطلوب وإن كانت الإساءة صغيرة إنما المطلوب الإحسان إليهما وليدل على أن عقوقهما من الكبائر، كما أن الأمر بالشيء يقتضي النهي عن ضده.

عدى الفعل المحذوف "أحسنوا أو تحسنون" بالباء للقرب والالتصاق فمن أحسنت به هو من قرب منك واتصل بك بخلاف " إلى " فهو من أحسنت إليه فتعطيه ولو على بُعد.

قدم الجار والمجرور "وبالوالدين" للإهتمام بهما وتنبيهاً على أنهما أولى بالإحسان ودل على اهتمام الشارع بأمرهما.

عبر بالمصدر "إحساناً" لتأكيد الحث على الإحسان إلى الوالدين، وجاء التأكيد" من تعلق المصدر بمضمر والتقدير وأحسنوا بالوالدين إحساناً،

(١) إرشاد العقل السليم لأبي السعود (١٢٢/١).
(٢) القرطبي جـ٧ صـ ١٣٢.
(٣) مفاتيح الغيب (٣٨٥/٣).

فيكون أسلوباً إنشائياً لفظاً ومعنى، أو تقديره وتحسنون بالوالدين إحساناً فيكون أسلوباً خبرياً لفظاً إنشائياً معنى" [1] وكأنه – ﷻ– أمر بالإحسان مرتين بالفعل المقدر "أحسنوا أو تحسنون" ومرة بالمصدر "إحساناً".

كما عبر المصدر أيضاً للمبالغة في الإحسان ومراعاة حقوق الوالدين، وجاءت المبالغة من الإتيان بالمصدر نكرة والتقدير أحسنوا بهما الإحسان الكامل.

"أردف عبادة الله بالإحسان إلى الوالدين؛ لأن نعم الوالدين تالية لنعم الله – ﷻ– وهذا يدل على عظم حق الوالدين؛ ولأن الوالدين هما الأصل والسبب في كون الولد ووجوده كما أنهما منعمان عليه بالتربية أما غير الوالدين فلا يصدر عنه الإنعام بأصل الوجود بل بالتربية فقط، فثبت أن انعامهما أعظم وجوه الإنعام بعد إنعام الله تعالى ...، أن الله سبحانه هو المؤثر في وجود الإنسان في الحقيقة والوالدين هما المؤثران في وجوده بحسب بن في وجلو اللسان إلى الو "للاهتمام بهما وتنبيهًا على أنهما أولى بالإحسان ودل على اهتمام الشارع بأمرهما. و"الوالدين إحسانا" فالعرف الظاهر فلما ذكر المؤثر الحقيقي أردفه بالمؤثر بحسب العرف الظاهر ... أن الله لا يطلب بإنعامه على العبد عوضاً البته بل المقصود إنما هو محض الإنعام والوالدين كذلك فإنهما لا يطلبان على الإنعام على الولد عوضاً مالياً ولا ثواباً ... فمن هذا الوجه أشبه إنعامهما إنعام الله تعالى ... أن الله تعالى لا يمل من الإنعام على العبد ولو أتى العبد بأعظم الجرائم فإنه لا يقطع عنه مواد نعمه كرمه، وكذا الوالدين لا يملان الولد ولا يقطعان عنه مواد منحهما وكرمهما، وإن كان الولد مسيئاً إلى الوالدين...، كما أن الوالد المشفق يتصرف في مال ولده بالإسترباح وطلب الزيادة ويصرفه عن البخس والنقصان فكذا الحق سبحانه وتعالى متصرف في طاعة العبد فيصونها عن الضياع ثم إنه سبحانه يجعل

(١) زاد المسير (جـ ٣ / ١٠٠).

أعماله التي لا تبقى كالشيء الباقي أبد الآباد[١]، كما قال تعالى :"مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ "[٢].

"إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا"

"وجملة إما يبلغن" بيان لجملة إحساناً وإما مركبة من إن الشرطية وما الزائدة للتأكيد والخطاب لغير معين فيعم كل مخاطب بقرينة العطف "ووجه تعدد فاعل "يبلغن" مظهراً دون جعله بضمير التثنية بأن يقال: إما يبلغان عندك الكبر، الإهتمام بتخصيص كل حالة من أحوال الوالدين بالذكر، ولم يستغن بإحدى الحالتين عن الأخرى، لأن لكل حالة بواعث على التفريط في واجب الإحسان إليهما فقد تكون حالة اجتماعهما عند الابن تستوجب الإحتمال منهما لأجل مراعاة أحدهما الذي الابن أشد حباً له دون ما لو كان أحدهما منفرداً عنده بدون الآخر الذي ميله إليه أشد، فالاحتياج إلى ذكر أحدهما في هذه الصورة للتنبيه على وجوب المحافظة على الإحسان له، وقد تكون حالة انفراد أحد الأبوين عند الابن أخف كلفة عليه من حالة اجتماعهما، فالاحتياج إلى "أو كلاهما" في هذه الصورة للتحذير من اعتذار الابن لنفسه عن التقصير بأن حالة اجتماع الأبوين أحرج عليه ـ فلأجل ذلك ذكرت الحالتان وأجرى الحكم عليهما على السواء فكانت جملة "فلا تقل لهما أفٍ" بتمامها جواباً لـ "إما")[٣].

(١) مفاتيح الغيب (٣/٥٨٥ ، ٥٨٦).
(٢) سورة البقرة آية ٢٦١.
(٣) التحرير والتنوير، سورة الإسراء: ٢٣ صـ ٦٩.

(عندك) الخطاب لكل مكلف بقرينة قوله "ألا تعبدوا إلا إياه"، "وإيثار ضمير المفرد هنا دون ضمير الجمع؛ لأنه خطاب يختص بمن له أبوان من بين الجماعة المخاطبين بقوله "ألا تعبدوا إلا إياه" فكان الإفراد أنسب وإن كان الإفراد والجمع سواء في المقصود لأن خطاب غير المعين يساوي خطاب الجمع".(١)

"أُفٍّ" اسم فعل مضارع معناه أتضجر وفيه لغات كثيرة أشهر كلها ضم الهمزة وتشديد الفاء أي "لا تسمعهما قولاً سيئاً حتى ولا التأفيف الذي هو أدنى مراتب القول السيء"(٢)، وليس المقصود من النهي عن أن يقول لها "أف" خاصة وإنما المقصود النهي عن الأذى باللسان ولو بأوجز كلمة، وترى إيجاز القصر في جملة "لَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ" من المعاني الكثيرة بألفاظ قليلة، من حسن الخلق ولين الجانب والأدب الجم، وعدم الزجر لما لا يعجبه.

"وَلَا تَنْهَرْهُمَا" النهر: الزجر أي ولا تزجرهما والمراد المنع من مخالفتهما والتكذيب لهما، وصل بين قوله "ولا تنهرهما" وبين "ولا تقل لهما أفٍ"؛ للتوسط بين الكمالين فالجملتان متفقتان في الإنشائية لفظاً ومعنى والمسند واحد فيهما.

"وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا" أي بتوقير وتعظيم يستأنف النظم الكريم نوعاً آخر من أنواع الإكرام للوالدين وهو القول الكريم الذي يجمع الفضائل".

"كريماً" أي "جميلاً" لا شراسة فيه، قال الراغب: كل شيء يشرف في بابه فإنه يوصف بالكرم، وجعل ذلك بعض المحققين من وصف الشيء باسم صاحبه أي قولاً صادراً عن كرم ولطف ويعود بالآخرة إلى القول الجميل الذي

(١) التحرير والتنوير سورة الإسراء أية: ٢٣ : صـ ٦٨.
(٢) تفسير ابن كثير، سورة الإسراء: ٢٣ صـ ٣٤.

يقتضيه حسن الأدب ويستدعيه النزول على المروءة مثل أن يقول يا أبتاه ويا أماه ولا يدعوهما بأسمائهما فإنه من الجفاء وسوء الأدب ... وابن المنذر عن أبي الهداج أنه قال لسعيد بن المسيب كل ما ذكر الله تعالى في القرآن من بر الوالدين فقد عرفته إلا قوله سبحانه "وقل لهما قولاً كريماً" ما هذا القول الكريم فقال ابن المسيب قول العبد المذنب للسيد الفظ"[1]

وفي قوله "وقل لهم قولاً كريماً" إيجاز قصر حيث عبرت الجملة من المعاني الكثيرة بألفاظ قليلة من القول الرفيع الكريم الجميل السهل الذي يقتضيه حسن الأدب، لا شراسة فيه.

فإكرام الوالدين لا يقف عند حد التأفف من القول والنهر بل يدخل فيه أن يكون القول قولاً كريماً حتى يتم الإحسان إليهما.

ولعل في التعبير بالفعل الأمر "قل" ما دل على التوجيه والعناية والإهتمام لما سيلقى بعده ثم التأكيد والمبالغة بالمصدر "قولاً".

"كَرِيمًا" لعل في هذا اللفظ ما يبين ما فيه من جمال حيث إن بنيته تدل على بنائه الذي يعمل فيه العقل أكثر من اللغة، فبسبب القول الكريم تنال درجة الإحسان إلى الوالدين.

❁❁❁❁❁

(١) روح المعاني للآلوسي سورة الإسراء صـ ٥٦.

المبحث الثالث

القول الميسور والسديد

أولاً : القول الميسور :

قال تعالى: "وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا" (١)

"والخطاب لغير معين ليعم كل مخاطب ، والمقصود بالخطاب النبي – ﷺ – .... فإن المواجهة " ربك " في القرآن جاءت غالباً لخطاب النبي – ﷺ – ..... ما روى أن النبي – ﷺ – كان إذا سأله أحد مالاً ولم يكن عنده ما يعطيه يعرض عنه حياء فنبهه الله – ﷻ– إلى أدب أكمل من الذي تعهده من قبل ويحصل من ذلك تعليم لسائر الأمة".(٢)

يقول الفخر الرازي – رحمه الله – " والمعنى أنك إن أعرضت عن ذي القربى والمسكين وابن السبيل حياء من التصريح بالرد بسبب الفقر والقلة: "فقل لهم قولاً ميسوراً" أي سهلاً ليناً".(٣)

"وإما" الواو: حرف استئناف، "إما" أن حرف شرط جازم، ما حرف زائد، "تعرضن" فعل مضارع فعل الشرط مبني على الفتح في محل جزم، النون للتوكيد، فالفعل "تعرضن" جاء مؤكداً للمبالغة في الإعراض والصد حتى صار سلوكاً واضحاً، حذف المسند إليه "الفاعل" ضمير مستتر تقديره أنت، لوضوحه.

"تعرضن" الإعراض أصله ضد الإقبال مشتق من العُرض – بضم العين – أي الجانب، فأعرض بمعنى أعطى جانبه، "وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه".

---

(١) سورة الإسراء آية ٢٨.

(٢) التحرير والتنوير سورة الإسراء ٨٢.

(٣) مفاتيح الغيب ٢٧٧٩/١.

"أي إن سألك أحدهم عطاء فلم تجبه إليه أو إن لم تفتقدهم بالعطاء المعروف فتباعدت عن لقائهم حياء منهم أن تلاقيهم بيد فارغة فقل لهم قولاً ميسوراً"(١)، وهي كناية عن عدم الإيتاء.

والإعراض هنا اعتراض لعدم وجود ما يعطي لا اعتراض البخل فيكون الإعراض لأجل ابتغاء رزق من الله وأن يكون معه قول ميسور لين حسن بالإعتذار والوعد بالإعطاء عند وجود الإعطاء، والفعل "تعرضن" جاء مؤكداً، ضمير "عنهم" يعود إلى ذي القربى والمسكين وابن السبيل وفي هذا "تأديب للمؤمن إن كان فاقداً ما يبلغ به إلى فعل الخير أن يرجو من الله تيسير أسبابه، وأن لا يحمله الشح على السرور بفقد الرزق للراحة من البذل بحيث لا يعدم البذل الآن إلا وهو راج أن يسهل له في المستقبل حرصاً على فضيلته، وأنه لا ينبغي أن يعرض عن ذي القربى والمسكين وابن السبيل إلا في حال رجاء حصول نعمة فإن حصلت أعطاهم " (٢)

" ابتغاء رحمة" ابتغاء مفعول لأجله ورحمة مضاف إليه، عرفت "ابتغاء أي مبتغياً رحمة بالإضافة لتعظيم الرحمة.

"رحمة" مجاز مرسل علاقته المسببية فالرحمة مسببه عن الرزق أي الرزق سبب للرحمة ؛لأنه إذا أعطى أثيب على عطائه ، وقوله "ابتغاء رحمة من ربك ترجوها" كناية عن الفقر، لأن فاقد المال يطلب رحمة الله وإحسانه، فلما كان فقد المال سبباً لهذا الطلب ولهذا الإبتغاء أطلق اسم السبب على المسبب فسمى الفقر بابتغاء رحمة الله "(٣).

"**من ربك ترجوها**"

"ربك" خطاب للرسول – ﷺ – عبر بضمير الخطاب ؛ ليلفت الانتباه؛ وليشعر الرسول – ﷺ – بقربة الشديد من ربه ؛ وليجعل الخطاب عاماً في

(١) التحرير والتنوير سورة الإسراء ٨٣.
(٢) التحرير والتنوير الإسراء ٨٣ .
(٣) مفاتيح الغيب ١ / ٢٧٧٩.

هذا الشأن، خص لفظ "رب"؛ ليفيد التربية والرعاية من الله – ﷻ– وفي إضافة "ربك" تشريف وتكريم للمضاف إليه، "ترجوها" حذف المسند إليه الفاعل ضمير مستتر تقديره أنت للإيجاز وللمبادرة إلى ذكر المطلوب.

"فقل لهم قولاً ميسوراً" الفاء رابطة لجواب الشرط لتربط الجواب بالشرط في سرعة تامة أي قول حسن بالإعتذار، "لين"، مقبول، والوعد عند الموجدة لئلا يحمل الإعراض، "والميسور: مفعول من اليسر، وهو السهولة وفعله مبني للمجهول يقال: يُسِر الأمر بضم الياء وكسر السين، كما يقال: سُعِد الرجل ونحس، والمعنى جعل يسيراً غير عسير" وكذلك يقال: عُسِر"[١].

"واليسر واليسار والميسرة والمْيسرةَ كله السهولة والغنى والميسور ضد المعسور وقد يسره الله لليسرى أي وفقه لها"[٢]، حذف المسند إليه في قول "أي أنت" والجملة في محل جزم جواب شرط.

يقول ابن كثير –رحمه الله – " أي إذا سألك أقاربك ومن أمرناك بإعطائهم وليس عندك شيء وأعرضت عنهم لفقد النفقة "فقل لهم قولاً ميسوراً" أي عدهم وعداً بسهولة ولين إذا جاء رزق الله سنعطيكم إن شاء الله"[٣].

"والمعنى عند حصول الفقر والقلة ... تعهدهم بالقول الجميل والكلام الحسن وتذكر لهم العذر وهو حصول القلة وعدم المال أو تقول لهم: الله يسهل"[٤].

والمقصود بالقول الميسور عند الفخر الرازي – رحمه الله – عدة وجوه "الأول: القول الميسور هو الرد بالطريق الأحسن، الثاني: القول الميسور اللين السهل، الثالث: قال بعضهم القول الميسور مثل قوله: قول معروف ومغفرة

(١) التحرير والتنوير (٨٣/١٥).
(٢) لسان العرب (٢٩٥/٥).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٤٦٧/٨).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٤٦٧/٨).

خير من صدقة يتبعها أذى"، قالوا: والميسور هو المعروف، لأن القول المتعارف لا يحوج إلى تكلف ... والله أعلم.(١)

وعند ابن الشيخ الطاهر ابن عاشور – رحمه الله – القول الميسور: اللين الحسن المقبول عندهم ، شبه المقبول بالميسور في قبول النفس إياه لأن غير المقبول عسير"(٢)، وفي اختيار وزن مفعول في قوله "ميسوراً"؛ ليظهر أن هذا القول له وقع في النفس والوجدان بتلذذ حلاوة القول.

ثانياً : القول السديد:

قال تعالى: "**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا**"(٣).

"يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله اتقوا الله أن تعصوه فتستحقوا بذلك عقوبته وقوله " وقولوا قولاً سديداً) يقول: قولوا في رسول الله والمؤمنين قولاً قاصداً غير جائر حقاً غير باطل"(٤).

أي راقبوا الله – ﷻ– فيما تقولونه بألسنتكم قولاً مستقيماً لا انحراف فيه ولا إعوجاج ؛ ليوفقكم للأعمال الصالحة؛ وليغفر ذنوبكم.

أرشدهم الله – ﷻ– " إلى ما ينبغي أن يصدر ما يصدر منهم من الأفعال والأقوال، أما الأفعال فالخير وأما الأقوال فالحق لأن من أتى بالخير وترك الشر، فقد اتقى الله ومن قال الصدق قال قولاً سديداً ثم وعدهم على الأمرين على الخيرات بإصلاح الأعمال فإن بتقوى الله يصلح العمل والعمل

(١) مفاتيح الغيب (٢٧٧٩/١).
(٢) التحرير والتنوير (١٥/ ٨٣).
(٣) سورة الأحزاب آية ٧٠، ٧١ .
(٤) جامع البيان للطبري (٣٣٥/٢).

الصالح يرفع ويبقى فيبقى فاعل خالداً في الجنة وعلى القول السديد بمغفرة الذنوب"[1].

بدأت الآية الكريمة بالأسلوب الإنشائي المعبر عنه بـ (النداء) الذي يلفت انتباه السامع للتشويق لما سيذكر بعده؛ لأنه يتحدث عن صلاح الأعمال، وهو بـ "ياء" الموضوعة للبعيد إشارة إلى رفعتهم، والنداء من الله – ﷻ– للإهتمام بهم، وفيه ترغيب بما يذكر بعده وهو أمرهم بالتقوى والقول السديد.

"**آمنوا**" : أي آمنوا بالله وصدقوا رسوله فالإيمان منهم يقتضي الالتزام بما يذكر بعده، فهم موصوفون بالإيمان ، وصفهم – ﷻ– بالإيمان وهو التصديق القلبي؛ ليدل على أن الإيمان يشترطان يتمكن من القلب أولاً ويكون ملازماً لصاحبه لا ينفك عنه أبداً ولا يكون مجرد كلمات ترددها الألسنة ، فإذا تمكن الإيمان في قلب صاحبه انقادت جوارحه ليظهر عليها أثر الإيمان من الامتثال للأوامر والاجتناب للنواهي؛ ابتغاء رضا الله – ﷻ– ليعلم المقصود، عرف المسند إليه "الذين" بالموصولية الذي يجذب الانتباه؛ لأنه يجعل المتلقى في تساؤل ليفيد أن وصفهم بالإيمان ملازم لهم والإشارة إلى نوع الخبر، ففي مضمون الصلة وهو الإيمان إشارة إلى أن الخبر المبني على الموصول يقتضي الالتزام به ففي الآية مدح للمؤمنين بأنهم آمنوا.

"اسم الموصول يرتبط بصلته وهو الإيمان؛ ليفيد تعظيمهم والتشويق إلى الخبر ، فهو يجعل المتلقى في تشويق فيأت الخبر مناسباً مع الصلة".

" **اتقوا الله** " فالإيمان يكون عليه التطبيق العملي وهو التقوى، وفيه دليل على أن الإيمان لا يتم إلا بالتقوى.

(١) مفاتيح الغيب (٢٥ : ١٨٦).

خص لفظ الجلالة " الله " دون " ربكم " ؛ لأن لفظ الجلالة "الله" اسمه الجامع لكل صفات الجلال والجمال فيه دافع لتلبية أمر الله – ﷻ– دون تقصير.

ثم جاء الأسلوب الإنشائي "اتقوا الله – وقولوا" وهو أمر حقيقي لأنه من الأعلى إلى الأدنى على سبيل الوجوب والإلزام، واشتملت الآية على ثلاثة اساليب إنشائية فبدأت بالنداء "ثم بالأم "اتقوا – وقولوا".

"**وقولوا قولاً سديداً**"

"**قولوا**" أسلوب إنشائي " فعل أمر " دل على العناية والإهتمام بالسامع ليوقظه وينبه لما سيلقى بعده.

عطف الجملة على ما قبلها للتوسط بين الكمالين فالجملتان إنشائية لفظاً ومعنى ، ويقول الطاهر ابن عاشور – رحمه الله – القول الكلام الذي يصدر من فم الإنسان يعبر عما في نفسه .

"سديدًا" السداد في القول هو: الإستقامة والقصد والصواب من القول والفعل" (١)

"التسديد" التوفيق للسداد، وهو الصواب والقصد من القول والعمل"(٢).

والسديد: الذي يوافق السداد، والسداد الصواب والحق ومنه تسديد السهم نحو الرمية، أي عدم العدول به عن سمتها بحيث إذا اندفع أصابها، فشمل القول السديد الأقوال الواجبة والأقوال الصالحة النافعة ، مثل ابتداء السلام، وقول المؤمن للمؤمن الذي يحبه : إني أحبك، ويشمل القول السديد ما هو تعبير عن إرشاد من أقوال الأنبياء والعلماء والحكماء وما هو تبليغ لإرشاد غيره من مأثور أقوال الأنبياء والعلماء ، فقراءة القرآن على الناس من القول السديد، ورواية حديث الرسول – ﷺ – من القول السديد ، وكذلك نشر أقوال

(١) المعجم الوسيط (سدّ).

(٢) تاج اللغة وصحاح العربية إسماعيل بن حماد الجوهري (شدّ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين – بيروت – ط الرابعة – ١٤٠٧ – ١٩٨٧م.

الصحابة والحكماء وأئمة الفقه ومن القول السديد تمجيد الله والثناء عليه مثل التسبيح ومن القول السديد الآذان والإقامة قال تعالى: "مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ"(١) والقول السديد يشمل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ..".

"**قولاً سديداً**" أي سداداً يعني به في منطقة وفي عمله كله والسديد الصدق .... "وقيل قولاً سديداً أي " قولوا لا إله إلا الله"(٢).

"والسداد: القصد إلى الحق، والقول بالعدل يقال: سدد السهم نحو الرمية: "إذا لم يعدل به عن سمتها، كما قالوا سهم قاصد، والمراد نهيهم عما خاضوا فيه من حديث زينب من غير قصد وعدل في القول، والبعث على أن يسد قولهم".

"**يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم**"

بينت فضل الله – ﷻ– على عباده، فإن التقوى والقول السديد سبب في صلاح الأعمال ومغفرة الذنوب.

حذف المسند إليه من الآية والتقدير "يصلح الله لكم أعمالكم ويغفر الله لكم ذنوبكم " لاختصاص فعل الإصلاح والمغفرة بالله – ﷻ– وفيه إسراع بتوضيح الجزاء على التقوى ، والقول والسديد بإصلاح الأعمال ومغفرة الذنوب.

"يصلح لكم أعمالكم، تتحدث الآية الكريمة عن جزاء الله – ﷻ– للمؤمنين من إصلاح الأعمال، آثر لفظ يصلح دون يفلح ، لأن الصلاح عام في جلب الخير ودفع الشر أما الفلاح في نيل الخير فـ "الصلاح ما يتمكن به

(١) سورة فاطر آية ١٠.
(٢) جامع البيان للطبري (٣٣٦/٢٠).

من الخير أو يتخلص به من الشر أما الفلاح فهو نيل الخير والنفع الباقي أثره"[١].

وهذا من إعجاز القرآن الكريم أن "ظاهرة الترادف اللغوي تكاد تكون معدومة في لغة القرآن ... لأن لكل لفظ قرآني خاصية فريدة"[٢].

ويسمى هذا في البلاغة العربية "ائتلاف اللفظ مع المعنى" وهي: أن تكون الألفاظ لائقة بالمعنى المقصود ومناسبة له"[٣]، فالقرآن الكريم معجز للإنس والجن وألفاظه مؤتلفة مع معانيه وكيف لا وهو من عند الله – ﷻ–.

آثر لفظ "أعمالكم" دون "أفعالكم" لأن العمل كل فعل يكون من الحيوان بقصد فهو أخص من الفعل، لأن الفعل قد يثبت إلى الحيوانات التي يقع منها فعل بغير قصد " [٤]

فالعمل أخص من الفعل ، والفعل عام يدل على سرعه الحدث دون بطء وفيه قوله تعالى : "أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ" [٥]

أما العمل ففيه اجتهاد في التحصيل ووقت لإنجازه وتحمل الصعاب للوصول إليه، فالله – ﷻ– يصلح الأعمال التي قام المؤمنون بها في مثابرة واجتهاد، ولذا ترى أن لكل من الألفاظ ما يناسب المقام فـ "كتاب الله لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب على لفظة أحسن منها لم يوجد"[٦]

"ويغفر لكم ذنوبكم" وصل الجملة بما قبلها للتوسط بين الكمالين فقد اتحدتا الجملتان في الخبرية لفظاً ومعنى وفائدة الخبر هو التقرير.

---

(١) الفروق لأبي هلال العسكري ١٧٤.
(٢) دراسات جديدة في إعجاز القرآن صـ ٣٢٨.
(٣) جواهر البلاغة : ٢٣٢.
(٤) المفردات ٣٤٨.
(٥) سورة الفيل آية ١.
(٦) الإتقان في علوم القرآن ٩/٤ .

"أعمالكم – ذنوبكم" جاءت جمعاً للكثرة وختمت بضمير جمع المخاطبين لقرع الآذان ولتنبيه الأذهان.

"**ويغفر لكم ذنوبكم**" عطف على الجملة قبلها ؛ للتوسط بين الكمالين؛ لإتفاق الجملتين في الخبرية لفظاً ومعنى، فالله – ﷻ– يغفر الذنوب؛ لتقواهم؛ ولقولهم القول السديد.

وفي التعبير بالفعل المضارع "يصلح، يغفر "لتجدد حدوث الصلاح والمغفرة فهما وعد من الله – ﷻ– للمؤمنين.

المبحث الرابع

القول الحسن والأحسن

١- قال تعالى: "وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ "(١)

٢- قال تعالى: "وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا"(٢).

٣- قال تعالى: "ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ"(٣).

القول الحسن :

هو القول الذي يستحسنه ذوو العقول الراجحة والفطرة السليمة "والإحسان ضد الإساءة يقال رجل محسن والمحاسن في الأعمال ضد المساوئ"(٤).

أولاً : القول الحسن :

١- ال تعالى: "وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ "(٥)

(١) سورة البقرة آية ٨٣.
(٢) سورة الإسراء آية ٥٣.
(٣) سورة الزمر آية ١٨.
(٤) لسان العرب / حسن.
(٥) سورة البقرة آية ٨٣.

يخاطب الله – ﷻ– النبي – ﷺ – والمؤمنين أنه أنعم على بني إسرائيل، وأخذ الميثاق عليهم في هذه التكاليف الثمانية ومع إنعامه عليهم تولوا وأساءوا " ولم يتلقوا نعم ربهم بالقبول مع توكيد الدلائل والمواثيق وذلك يزيد في قبح ما هم عليه من الإعراض والتولى؛ لأن الإقدام على مخالفة الله تعالى بعد أن بلغ الغاية في البيان والتوثق يكون أعظم من المخالفة مع الجهالة"[١].

والغرض من خطابه – ﷻ– للنبي والمؤمنين؛ ليتأملوا أحوال اليهود "ويؤديهم التأمل إلى قطع الطمع عن إيمانهم"[٢] أو الخطاب لليهود الموجودين في عهد الرسول –ﷺ – ؛ توبيخاً لهم بسوء صنيع السابقين منهم وأنهم أعرضوا عن الرسول – ﷺ – بعد ظهور المعجزات كإعراض أسلافهم.

"َإِذْ " أي اذكروا إذ نصب بإضمار فعل خوطب به (النبي – ﷺ – والمؤمنون ليؤديهم التأمل في أحوالهم إلى قطع الطمع عن إيمانهم أو اليهود الموجودون في عهد النبوة توبيخاً لهم بسوء صنيع أسلافهم"[٣].

الله – ﷻ– كلفهم بأشياء، التكليف الأول :

قوله تعالى " **لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ** "

التفات من الخطاب إلى الغيبة، دل الإلتفات على عظم لفظ الجلالة، فهو اسم جامع لصفات الجلال والجمال ، ووضع الظاهر لفظ الجلالة "الله" موضع الضمير "أنا"؛ ليثبت ﷻ المعنى ويقرره في الأذهان بصورة لا يصل إلى مثلها الضمير.

والآية تتضمن عبادة الله وحده أي توحيد الله عز وجل ، بتوحيد ذاته وتوحيد العبادة لله – سبحانه – وتوحيد جهة التشريع.

(١) إرشاد العقل السليم لأبي السعود (١/ ١٢٢-١٢٣).
(٢) إرشاد العقل السليم لأبي السعود (١/ ١٢٣).
(٣) إرشاد العقل السليم لأبي السعود (١/ ١٢٢).

وقد بدأ الميثاق بالنهي عن عباده غير الله؛ لأن الشرك أعظم المحرمات، ولذا لا يقبل معه أي شيء من الطاعات، وأن الله – ﷻ– يغفر الذنوب بفضله دون الإشراك.

قال تعالى: "إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا"(١).

فصلت جملة "لا تعبدون إلا الله" عما قبلها ، لشبه كمال الإتصال كأن الجملة الأولى أثارت سؤالاً، وهو ما الميثاق؟ فكان الجواب "لا تعبدون إلا الله"، وقد بدأ الميثاق بالنهي عن عبادة غير الله صلاحاً للعقل تنويراً من ظلام الجاهلية، وتنقية له من الخرافات التي تسيطر عليه فيكون مؤهلاً للتكاليف والفرائض؛ ليقوم بواجباته ويأخذ حقوقه ، ويكون مؤهلاً لمعرفة الشرائع والأحكام، فيعترف ويقر بالعبودية والربوبية لله – ﷻ– وأنه – ﷻ– هو مالك الكون بيده الأمر كله، فالتوحيد هو الأساس الذي يبني عليه جميع الأحكام والعبادات.

كما بدأ الميثاق بتقديم نعم الله – ﷻ– على الإنسان، ولذا كان لابد من شكره على شكره غيره أولاً؛ لأن نعمة التوحيد والإسلام أعظم النعم.

وفي هذه الجملة المنفية من الإعراب ثمانية أوجه :

"أظهرها: أنها مفسره لأخذ الميثاق وذلك أنه لما ذكر تعالى أنه أخذ ميثاق بني إسرائيل كان في ذلك إبهام للميثاق ما هو؟ فأتى بهذه الجملة مفسرة له، ولا محل لها حينئذٍ من الإعراب؟، الثاني: أنها في محل نصب على الحال من "بني إسرائيل" وفيها حينئذٍ وجهان، أحدهما: أنها حال مقدرة بمعنى أخذنا ميثاقهم مقدرين التوحيد أبداً ما عاشوا، والثاني: أنها حال مقدرة بمعنى: أخذنا ميثاقهم ملتزمين الإقامة على التوحيد ...، الثالث : أن يكن جواباً لقسم محذوف دل عليه لفظ السياق أي استخلفناهم أو قلنا لهم بالله لا تعبدون

(١) سورة النساء آية ٤٨.

ونسب هذا الوجه لسيبويه ووافقة الكسائي والفراء والمبرد، الرابع: أن يكون على تقدير حذف حرف الجر، وحذف أن والتقدير: أخذنا ميثاقهم على أن لا تعبدوا أو بأن لا تعبدوا فحذف حرف الجر؛ لأن حذفه مطرد مع أنّ وأنْ ثم حذفت أن الناصية فارتفع الفعل بعدها ...، الخامس : أن يكون في محل نصب بالقول المحذوف، وذلك القول حال تقديره : قائلين لهم لا تعبدون إلا الله ويكون خبراً في معنى النهي فـ "الإخبار في معنى الأمر والنهي أكد وأبلغ من صريح الأمر والنهي؛ لأنه كأنه سورع إلى الإمتثال والإنتهاء فهو يخبر عنه".[١] ...، السادس: أنّ، أنْ "الناصية" مضمرة ولكنها هي خبرها في محل نصب على أنها بدل من ميثاق ...، السابع : أن يكون منصوباً بقول محذوف وذلك القول ليس حالاً بل مجرد إخبار والتقدير وقلنا لهم ذلك ويكون خبراً في معنى النهي ...، الثامن: أن يكون التقدير أن لا تعبدون وهي "أن المفسرة"، لأن في قوله "أخذنا ميثاق بني إسرائيل "إبهاماً وفيه معنى القول ثم حذفت أن المفسرة ذكره الزمخشري"[٢].

هذا الميثاق "لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ " يدل على الدين؛ لأنه تعالى لما أمر بعبادة الله تعالى ونهى عن عبادة غيره، كان هذا " مسبوق بالعلم بذاته سبحانه وجميع ما يجب وما يجوز وما يستحيل عليه وبالعلم بوحدانيته وبراءته عن الأضداد والأنداد والبراءة عن الصاحبة والأولاد ومسبوق أيضاً بالعلم بكيفية العبادة التي لا سبيل إلى معرفتها إلا بالوحي والرسالة، فقوله: لا تعبدون إلا الله يتضمن كل ما اشتمل عليه علم الكلام وعلم الفقه والأحكام لأن العبادة لا تتأتى إلا معها"[٣].

(١) مفاتيح الغيب (٣/٥٨٥).
(٢) الدر المصون للسمين الحلبي (١ / ٤٥٨ ، ٤٥٩).
(٣) مفاتيح الغيب (٣/٥٨٥ ، ٥٨٦).

وجملة "لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ" إفراد الله – ﷻ– بالعبادة والتأكيد على ذلك عن طريق القصر قصر صفة العبادة على الله – ﷻ– قصراً حقيقياً، فما عدا المقصور عليه وهو "الله" – ﷻ– غير معبود ، فالعبادة ثابتة له – سبحانه – ومنفيه عمن سواه، والقصر هنا عن طريق النفي والاستثناء ، فاستقرت دلالة العبادة لله – ﷻ– في ذهن المتلقى عن طريق القصر لتنفي أي معبود لهذا الأسلوب، فجملة القصر في قوة جملتين إحداهما مثبتة والأخرى منفية ، وجاء القصر بطريق النفي والإستثناء إما لأنهم كانوا منكرين التوحيد أو نزلهم – ﷻ– منزلة المنكرين لما رآه – سبحانه – من أحوال عبادتهم.

التكليف الثاني : "وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا"

متعلق بمضمر أي وتحسنون أو أحسنوا [1]، "الإحسان هو: أرقى درجات التعامل سواء أكان ذلك مع الله سبحانه أم مع البشر وهو يعني مع الوالدين برهما، وحفظهما، وصيانتهما وامتثال أمرهما الرق نهما وترك السلطنة عليهما"[2].

والإحسان إلى الوالدين "ألا يؤذيهما البته ويوصل إليهما من المنافع قدر ما يحتاجان إليه فيدخل فيه دعوتهما إلى الإيمان إن كانا كافرين وأمرهما بالمعروف على سبيل الرفق إن كان فاسقين"[3]، فالإحسان بالمعاملة الكريمة الطيبة في أعلى درجاتها وأفضل أحوالها وتكون نابعة من القلب بحب وعطف وتكريم ورداً للجميل، ولذا برهما والإحسان إليهما من أفضل الأعمال وعقوقهما من الكبائر.

(١) إرشاد العقل السليم لأبي السعود (١/١٢٢).
(٢) القرطبي جـ٧ صـ ١٣٢.
(٣) مفاتيح الغيب (٣/٣٨٥).

وقوله "وبالوالدين إحساناً" فيه خمسة أوجه: أحدها أن تتعلق الباء بـ "إحساناً" على أنه مصدر واقع موقع فعل الأمر، والتقدير: وأحسنوا بالوالدين والباء ترادف.

الثاني: أنها متعلقة بمحذوف وذلك المحذوف يجوز أن يقدر فعل أمر مراعاة لقوله " لا تعبدون " فإنه في معنى النهي ... كأنه قال لا تعبدوا إلا الله وأحسنوا بالوالدين ويجوز أن يقدر خبراً مراعاة للفظ " لا تعبدون " والتقدير وتحسنون ... وينتصب إحساناً حينئذٍ على المصدر المؤكد لذلك الفعل المحذوف، الثالث: ان يكون التقدير: واستوصوا بالوالدين فالباء تتعلق بهذا الفعل المقدر وينتصب إحساناً حينئذٍ على أنه مفعول به ، الرابع : تقديره ووصيناهم بالوالدين، فالباء متعلقة بالمحذوف أيضاً وينتصب إحساناً حينئذٍ على أنه مفعول من أجله أي لأجل إحساناً حينئذٍ إلى الموصى بهم من حيث إن الإحسان متسبب عن وصيتنا بهم أو الموصى لما يترتب الثواب منالهم إذا أحسنوا إليهم، الخامس : أن تكون الباء وما عملت فيه عطفاً على قوله " لا تعبدون "إذا قيل بأن" أن " المصدرية مقدرة فينسبك منها ومما بعدها مصدر يعطف عليه هذا المجرور والتقدير أخذنا ميثاقهم بإفراد الله بالعبادة وبالوالدين أي وببر الوالدين أو بإحسان إلى الوالدين فتتعلق الباء حينئذٍ بالميثاق لما فيه من معنى الفعل، وينتصب "إحساناً" حينئذٍ على المصدر من ذلك المضاف المحذوف وهو البر لأنه بمعناه أو الإحسان الذي قدرناه"[1].

عطف "وبالوالدين إحساناً" على قوله " لا تعبدون إلا الله" عطف الأمر على النهي للمبالغة في مراعاة حقوق الوالدين وليدل على أن ترك الإساءة فقط ليس هو المطلوب وإن كانت الإساءة صغيرة إنما المطلوب الإحسان إليهما وليدل على أن عقوقهما من الكبائر، كما أن الأمر بالشيء يقتضي النهي عن ضده، عدى الفعل المحذوف "أحسنوا أو تحسنون" بالباء للقرب والالتصاق

(١) الدر المصون للسمين الحلبي (٤٥٩ ، ٤٦٠).

فمن أحسنت به هو من قرب منك واتصل بك بخلاف " إلى " فهو من أحسنت إليه فتعطيه ولو على بُعد.

قدم الجار والمجرور " وبالوالدين " للإهتمام بهما وتنبيهاً على أنهما أولى بالإحسان ودل على اهتمام الشارع بأمرهما.

عبر بالمصدر "إحساناً" لتأكيد الحث على الإحسان إلى الوالدين وجاء التأكيد " من تعلق المصدر بمضمر والتقدير وأحسنوا بالوالدين إحساناً فيكون أسلوباً إنشائياً لفظاً ومعنى، أو تقديره وتحسنون بالوالدين إحساناً فيكون أسلوباً خبرياً لفظاً إنشائياً معنى " [1] وكأنه – ﷻ– أمر بالإحسان مرتين بالفعل بالفعل المقدر "أحسنوا أو تحسنون" ومرة بالمصدر "إحساناً".

كما عبر بالمصدر أيضاً للمبالغة في الإحسان ومراعاة حقوق الوالدين، وجاءت المبالغة من الإتيان بالمصدر نكرة والتقدير أحسنوا بهما الإحسان الكامل.

أردف عبادة الله بالإحسان إلى الوالدين لأن نعم الوالدين تالية لنعم الله – ﷻ– وهذا يدل على عظم حق الوالدين، ولأن الوالدين هما الأصل والسبب في كون الولد ووجوده كما أنهما منعمان عليه بالتربية أما غير الوالدين فلا يصدر عنه الإنعام بأصل الوجود بل بالتربية فقط ، فثبت أن انعامهما أعظم وجوه الإنعام بعد إنعام الله تعالى ...، أن الله سبحانه هو المؤثر في وجود الإنسان في الحقيقة والوالدين هما المؤثران في وجوده بحسب بن في وجلو اللسان إلى الو "للإهتمام بهما وتنبيهًا على أنهما أولى بالإحسان ودل على اهتمام الشارع بأمرهما بـ "الوالدين إحسانًا فالعرف الظاهر فلما ذكر المؤثر الحقيقي أردفه بالمؤثر بحسب العرف الظاهر ... أن الله لا يطلب بإنعامه على العبد عوضاً البته بل المقصود إنما هو محض الإنعام والوالدين كذلك فإنهما لا يطلبان على الإنعام على الولد عوضاً مالياً ولا ثواباً ... فمن هذا

(١) زاد المسير (جـ ٣ / ١٠٠).

الوجه أشبه إنعامهما إنعام الله تعالى ... أن الله تعالى لا يمل من الإنعام على العبد ولو أتى العبد بأعظم الجرائم فإنه لا يقطع عنه مواد نعمه كرمه ، وكذا الوالدين لا يملان الولد ولا يقطعان عنه مواد منحهما وكرمهما ، وإن كان الولد مسيئاً إلى الوالدين ...، كما أن الوالد المشفق يتصرف في مال ولده بالإسترباح وطلب الزيادة ويصرفه عن البخس والنقصان فكذا الحق سبحانه وتعالى متصرف في طاعة العبد فيصونها عن الضياع ثم إنه سبحانه يجعل أعماله التي لا تبقى كالشيء الباقي أبد الآباد [1]، كما قال تعالى: "**مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ**"[2].

التكليف الثالث : " وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ " يطلق على قرابة الصلب والرحم، عطف على الوالدين.

"ذي القربى" الوالدين لأن صلة الوالدين مقدمة على ذي القربى، فحق ذي القربى تابع لحق الوالدين، والسبب في رعاية حق القرابة أن القرابة سبب للاتحاد والألفة والرعاية والنصرة فلو لم يحصل شيء من ذلك لكان ذلك أشق على القلب وأبلغ في الإيلام ولذا وجبت رعاية حقوق الأقارب.

التكليف الرابع : " وَٱلۡيَتَٰمَىٰ "

بالنظر إلى من لهم الإحسان في الآية بعد الوالدين وذي القربى نرى نوعاً جديداً أمر بالإحسان وهو اليتامى لإنعدام المدافع عنهم تولى الله – ﷻ – أمرهم وأمر بالإحسان إليهم؛ لأن اليتيم ضعيف وعاجز لا يستطيع أن يراعي ماله وشئونه، والأطماع فيه كثيرة والناس في غفلة عنه لذا أمر

(١) مفاتيح الغيب (٣/٥٨٥ ، ٥٨٦).
(٢) سورة البقرة آية ٢٦١.

بالإحسان إليهم في هذه الآية كما أمر بالنهي عن قرب مالهم في آية أخرى في قوله تعالى: "وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ "(١).

فنهى – ﷻ– عن القرب من مال اليتيم تخويفاً وتحذيراً من أخذ ماله أو التصرف فيه ولو بأقل الأشياء ولذا قال – سبحانه – "ولا تقربوا" ولم يقل "ولا تأخذوا أو لا تأكلوا" تحذيراً ووعيداً.

و"اليتامى" وزنه فَعالي وألفه للتأنيث وهو جمع يتيم ولا يقاس هذا الجمع، واليتيم: الإنفراد، ومنه اليتم لانفراده عن أبويه أو أحدهما"(٢).

التكليف الخامس: "وَٱلْمَسَٰكِينِ"

جمع مسكين ويسمونه جمعاً لا نظير له في الآحاد وجمع على صيغة منتهى الجموع ، وهو من العلل القائمة مقام علتين ... واختلف فيه: هل هو بمعنى الفقير أو أسوأ حالاً منه"(٣)

س: لماذا تأخرت درجة المساكين عن اليتامى ؟

جـ: لأن المسكين قد يكون ينتفع به في الإستخدام فكان الميل إلى مخالطته أكثر من الميل إلى مخالطة اليتامى، ولأن المسكين أيضاً يمكنه الاستغناء بتعهد نفسه ومصالح معيشته، واليتيم ليس كذلك فلا جرم قدم الله ذكر اليتيم على المسكين"(٤).

(١) سورة الأنعام آية ١٥٢.
(٢) الدر السمين (٤٦٨).
(٣) الدر السمين (٤٦٨).
(٤) مفاتيح الغيب (٥٨٦/٣).

التكليف السادس : " وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا "

المعنى المحوري لكلمة "حسناً"، "الحَسَن" نقاء الشيء ورقته بخروج الخشن أو الغليظ الذي يخالطه فيتشوب رقته، منه كما يخرج الزيْد من وسط الجبل، وكنقاء الكثيب من الصخور، وكالقمر ذي الضوء والبياض النقي ... ثم عمم في القول "وقولوا للناس حسناً".

أي قولوا للناس قولاً حسناً من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصدق في شأن والرفق بهم، "حُسْنا بالضم والإسكان فيحتمل أوجهاً، أحدها وهو الظاهر: أنه مصدر وقع صفة لمحذوف تقديره : وقولوا للناس قولاً حسناً أي: ذا حُسْن، الثاني: أن يكون وصف به مبالغة كأنه جعل القول نفسه حسناً، الثالث: أنه صفة على وزن فُعْل وليس أصله المصدر بل هو كالحُلو والمُر فيكون بمعنى حَسَن، الرابع: أنه منصوب على المصدر من المعنى، فإن المعنى: وليحسن قولكم حسناً " (١)

ومعناه " أي ليحسن قولكم نصب على مصدر الفعل الذي دل عليه الكلام، "وفعل" ... هو حسن في نفسه لإفراط حسنة"(٢)، "حسناً" أي قولوا للناس قولاً حسناً، أو قولاً ذا حسن.

"وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا "

و"كلام الناس مع الناس إما أن يكون في الأمور الدينية أو في الأمور الدنيوية، فإن كان في الأمور الدينية فإما أن يكون في الدعوة إلى الإيمان وهو مع الكفار أو في الدعوة إلى الطاعة وهو مع الفاسق، أما الدعوة إلى الإيمان فلابد وأن تكون بالقول الحسن كما قال تعالى لموسى وهارون "فَقُولَا لَهُۥ قَوْلاً

(١) الدر السمين (٤٦٩).
(٢) مفاتيح الغيب (٥٨٦/٣).

لَّيِّنَا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ" (١) أمرهما الله تعالى بالرفق مع فرعون مع جلالتهما ونهاية كفر فرعون وتمرده وعتوه على الله تعالى ، وقال لمحمد – ﷺ – "وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ " (٢) وأما دعوة الفساق فالقول الحسن فيه معتبر، قال تعالى: " ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ "(٣)، وقال " ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ "(٤)، وأما في الأمور الدنيوية فمن المعلوم بالضرورة أنه إذا أمكن التوصل على الغرض بالتلطف من القول لم يحسن سواه، فثبت أن جميع آداب الدين والدنيا داخلة تحت قوله "وقولوا للناس حسناً"(٥)

يقول ابن كثير رحمه الله في قوله تعالى: "وقولوا للناس حسناً" أي كلموهم طيباً ولينوا لهم جانباً، ويدخل في ذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالمعروف كما قال الحسن البصري في قوله تعالى: وقولوا للناس حسناً "فالحَسَن من القول يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويحلم، ويعفو، ويصفح، ويقول للناس حُسْناً كما قال الله، وهو كل خلق حَسَن رضية الله"(٦).

التكليف السابع والثامن: "وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ "

هما ما فرض عليهم في شريعتهم

(١) سورة طه آية ٤٤.
(٢) سورة آل عمران آية ١٥٩.
(٣) سورة النحل آية ١٢٥.
(٤) سورة فصلت آية ٣٤ .
(٥) مفاتيح الغيب (٣/٥٨٧).
(٦) تفسير القرآن العظيم (١/٤٧٤).

"توليتم" التفات من الغيبة إلى الخطاب من الحديث عن بني إسرائيل "وإذا أخذ ميثاق بني إسرائيل" إلى الخطاب في "توليتم".

" إِلَّا قَلِيلاً مِّنكُمۡ "

(منكم) صفة لقليلاً فهي في محل نصب أو رفع والظاهر أن القليل مراد بهم الأشخاص لوصفه بقوله "منكم"(١).

" وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ "

جملة في محل نصب حال تذييل ، جعله الحق – سبحانه – ختاماً لحالهم الإعراض عن النعم والطاعة.

ثانياً: القول الحسن:

٢- قال الله تعالى: " **وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا**" (٢).

" لما أعقب ما أمر النبي – ﷺ – بتبليغه إلى المشركين من أقوال تعظهم وتنهاهم من قوله تعالى : " قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ كَمَا يَقُولُونَ "(٣) وقوله " قل كونوا حجارة " وقوله " قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا " (٤) الأمر بإبلاغ المؤمنين تأديباً لما ينفعهم في هذا المقام على عادة القرآن في تلوين الأغراض وتعقيب بعضها ببعض أضدادها استقصاء لأصناف الهدى ومختلف أساليبه ونفع مختلف الناس ولما كان ما سبق من حكاية أقوال المشركين تنبيء عن ضلال اعتقاد نقل الكلام إلى أمر المؤمنين بأن يقولوا

(١) الدر المصون (٤٦٨).
(٢) سورة الإسراء آية ٥٣.
(٣) سورة الإسراء آية ٤٢.
(٤) سورة الإسراء آية ٥١.

أقوالاً تعرب عن حسن النية وعن نفوس زكية وأوتوا في ذلك كلمة جامعة وهي " يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ " (١)

" لعبادي " وهم : – عباد الرحمن ، فـ " عبيد و عباد – مفردهما عبد ، كل من في الأرض عبيد الله ، وليس كل من في الأرض عباد لله ، العبيد هم الذين يقهرون في الوجود كغيرهم بأشياء ، ولكن الذي يختارون فيه يتمردوا على الحق ، لكن العباد انقادوا وسلموا منطقة الإختيار إلى من وهب الإختيار " (٢)

في الأمر الذي جعل لهم فيه اختيار كالمباحات سلموه لله – ﷻ– ان يوجه لهم الإختيار كما يحب – ﷻ–.

قال الفخر الرازي: "اعلم ان قوله: "قل لعبادي" فيه قولان: القول الأول: ان المراد به المؤمنون، وذلك لأن لفظ العباد في أكثر آيات القرآن مختص بالمؤمنين قال تعالى: "**وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ**"(٣) وقال تعالى: "فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى" (٤) وقال"عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا"(٥)، إذا عرفت هذا فنقول: إنه تعالى لما ذكر الحجة اليقينية في إبطال الشرك وهو قوله: "قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى

(١) التحرير والتنوير سورة الإسراء آية ٥٣.
(٢) كلام الشيخ الشعراوي (حديث تليفزيوني).
(٣) سورة الزمر آية ١٧ ، ١٨.
(٤) سورة الفجر آية ٢٩.
(٥) سورة الإنسان آية ٦.

ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلاً" [1]، وذكر الحجة اليقينية في صحة المعاد وهو قوله: "أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا"[2] قال في هذه الآية وقل يا محمد لعبادي إذا أردتم إيراد الحجة على المخالفين فاذكروا تلك الدلائل بالطريق الأحسن، وهو أن لا يكون ذكر الحجة مخلوطاً بالشتم والسب ونظير هذه الآية قوله: "ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ" [3]، وقولـــــــــه: "۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ"[4] وذلك لأن ذكر الحج: "ادع إلى سبيلي إذا أردتم إيراد الحجة على المخالفين فاذكروا تلك الدلائل بالطريق الأحسن/ وهو أن لا يكون ذكر ولو اختلط به شيء من السب والشتم لقابلوكم بمثله كما قال: "وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرۡجِعُهُمۡ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ "[5] أما إذا وقع الإقتصار على

(١) سورة الإسراء آية ٤٢.
(٢) سورة الإسراء آية ٥١.
(٣) سورة النحل آية ١٢٥.
(٤) سورة العنكبوت آية ٤٦.
(٥) سورة الأنعام آية ١٠٨.

ذكر الحجة بالطريق الأحسن الخالي عن الشتم والإيذاء أثر في القلب تأثيراً شديداً فهذا المراد من قوله: "وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحۡسَنُۚ"(١)

" يَقُولُوا ": أجزم "يقولوا" على حذف لام الأمر وهو وراد كثيراً بعد الأمر بالقول، ولك أن تجعل "يقولوا" جواباً منصوباً في جواب الأمر مع حذف مفعول القول لدلالة الجواب عليه، والتقدير: قل لهم: قولوا التي هي أحسن يقولوا ذلك فيكون كناية على أن الإمتثال شأنهم فإذا أمروا امتثلوا"(٢)

" يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحۡسَنُ "

"وهذا تأديب عظيم في مراقبة اللسان وما يصدر منه وفي الحديث الصحيح عن معاذ بن جبل أن النبي – ﷺ – أمره بأعمال تدخله الجنة ثم قال له" ألا أخبرك بملاك ذلك ؟ قلت: بلى يا رسول الله ، فأخذ بلسانه وقال كف عليك هذا قال : قلت يا رسول الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ فقال : ثكلتك أمك وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو قال على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم"(٣)

"يقولوا" دل على العناية والإهتمام بالسامع، عرف المسند إليه "التي" بالموصولية لتميزهم بتلك الصلة، فالتعبير بالإسم الموصول يزيد المعنى قوة ووضوحاً؛ لأنه يرد مبهما فيدعوا العقل إلى التفكير والتأمل ثم يظهر معناه بورود الصلة، وهذا من الإيضاح بعد الإبهام فمجيء المعنى مبهما ثم موضحاً من وسائل توكيد المعنى وتقريره.

"أحسن" صفة لمحذوف يدل عليه فعل والتقدير التي هي أحسن.

---

(١) مفاتيح الغيب (٥٣/١).
(٢) التحرير والتنوير سورة الإسراء ٥٣ : ١٣٢.
(٣) التحرير والتنوير سورة الإسراء ٥٣ : ١٣١.

"والمقصد الأهم من هذا التأديب تأديب الأمة في معاملة بعضهم بعضاً بحسن المعاملة وإلانة القول، لأن القول ينم عن المقاصد بقرينة قوله" إن الشيطان ينزع بينهم " ثم تأديبهم في مجادلة المشركين اجتناباً لما تثيره المشادة والغلظة من ازدياء مكابرة المشركين وتصلبهم فذلك من نزغ الشيطان بينهم وبين عدوهم، قال تعالى: "ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم" والمسلمون في مكة يؤمئذٍ طائفة قليلة وقد صرف الله عنهم ضر أعدائهم بتصاريف من لطفة ليكونوا آمنين فأمرهم أن لا يكونوا سبباً في إفساد تلك الحالة"(١)

"وروى أن قول التي هي أحسن أن يقولوا للمشركين يهديكم الله، يرحمكم الله أي بالإيمان ، وعن الكلبي كان المشركون يؤذون أصحاب رسول الله – ﷺ – بالقول والفعل فشكوا ذلك إلى رسول الله – ﷺ – فأنزل الله هذه الآية"(٢)

"إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡ ":

فصل الجملة عما قبلها ؛ لشبه كمال الاتصال فالجملة الأولى " يقولوا التي هي أحسن "أثارت سؤالاً لماذا؟ فكان الجواب "إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡ "، والغرض عدم الإستهانة بفاسد الأقوال " فإنها تثير مفاسد من عمل الشيطان، جاءت الجملة الخبرية مؤكدة لتنزيل غير السائل منزلة السائل، وفي تعريف المسند إليه "الشيطان" بالعلمية تحقيراً له.

النزع أصله: الطعن السريع، استعار النزع للإفساد السريع على سبيل الإستعارة التصريحية الأصلية، فالاستعارة صورت النزع وهو معنوي في صورة المحسوس.

(١) التحرير والتنوير سورة الإسراء ٥٣ : ١٣٢.
(٢) التحرير والتنوير سورة الإسراء ٥٣ : ١٣٢.

"إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينًا"

فصل الجملة عما قبلها ؛ لشبه كمال الإتصال حيث وقعت الجملة جواباً لسؤال الذي تضمنته الجملة الأولى لماذا الشيطان ينزع بينهم؟، فكان الجواب "إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينًا ".

"كان" عبر بالفعل الماضي للدلالة على تحقق الوقوع بأن عدواته جبل عليها منذ نشأة آدم – عليه السلام–.

وننتقل إلى آية أخرى من القول الحسن:

٣– قوله تعالى: " ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ " (١).

والمراد بالذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه هم في قوله تعالى: "وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ "(٢).

" ٱلَّذِينَ ": هم الذين اجتنبوا الطاغوت، وأنابوا إلى الله، بدأت الآية بتعريف المسند إليه بالموصولية، لجذب انتباه المخاطب إذ يجعل المخاطب في تساؤل لتحديد المقصود ويستمر مع الآية حتى نهايتها؛ ليصل إلى المراد منها، واسم الموصول "الذين" مرتبط بصلته وهو "يستمعون القول" فيفيد بذلك تميزهم بتلك الصلة مع تعظيمهم في حيز الصلة ، كما أن اسم الموصول يفيد التشويق إلى الخبر، فيأت الخبر متناسقاً مع الصلة.

"يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ": "يستمعون الأقوال التي يريد أهلها صرفهم عن الإيمان ... فإذا استمعوا ذلك اتبعوا أحسنه وهو ما يدعوا إلى الحق"(٣).

---

(١) سورة الزمر آية ١٨.

(٢) سورة الزمر آية ١٧.

(٣) التحرير والتنوير سورة الزمر آية ١٨ صـ ٣٦٥ .

أي يستمعون مما يدعو إلى الهدى مثل القرآن وإرشاد الرسول – ﷺ – ويستمعون الأقوال التي يريد أهلها صرفهم عن الإيمان فإذا استمعوا ذلك اتبعوا أحسنه وهو ما يدعو إلى الحق " (١).

عبر بسماعهم القول بالفعل المضارع (يستمعون) وهو أبلغ من يسمعون؛ ليدل على أن استماعهم كان عن اهتمام وقصد ورغبة منهم في التمييز بين الحسن والأحسن والفاضل والأفضل، و(أل) في القول للجنس.

"فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ" : أي أحسن ما بلغهم من القول فيتبعون أولاه بالقبول وأرشده إلى الحق، وهذا "مدح لهم بأنهم نقاد في الدين يميزون بين الحسن والأحسن والفاضل والأفضل فإذا اعترضهم أمران واجب وندب اختاروا الواجب وكذلك المباح والندب وقيل يستمعون أوامر الله تعالى فيتبعون أحسنها نحو القصاص والعفو والإنتصار والإغضاء والإبداء والإخفاء لقوله تعالى: "وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ" (٢) " (٣).

" أحسنه" اسم التفضيل ليس مستعملاً في تفاوت الموصوف به في الفضل على غيره فهو للدلالة على قوة الوصف مثل قوله تعالى: " قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ " (٤)، أثنى الله عليهم بأنهم أهل نقد يميزون بين الهدى والضلال والحكمة والأوهام ..."(٥).

" أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ ": جملة مستأنفة لتلقي الخبر، عرف المسند إليه "أولئك" باسم الإشارة لبيان استحقاق المسند إليه لصفات مذكورة

(١) التحرير والتنوير سورة الزمر آية ١٨ صـ ٣٦٥.
(٢) سورة البقرة آية ٢٣٧.
(٣) روح المعاني (١٢ / ٢٤٢).
(٤) سورة يوسف آية ٣٣.
(٥) التحرير والتنوير سورة الزمر آية ١٨ صـ ٣٦٦.

بعده من أجل اتصافه بصفات مذكورة قبل اسم الإشارة وهي اجتنابهم عبادة الأصنام والإنابة إلى الله، واستماع أحسن القول فاستحقوا الهداية من الله ﷻ: كما ساعد اسم الإشارة على الإيجاز وعدم التكرار، كما دل على الإهتمام بهم.

عبر باسم الإشارة " أولئك " الموضوع البعيد؛ لقصد التعظيم والتعريف بالموصولية " الذين " مدح بما في حيز الصلة "هداهم الله"؛ ليبين أن استماعهم أحسن القول هداية الله – ﷻ– لهم بأن هيأ نفوسهم للهدى ، فأقبلوا على سماعه وفيه تميزهم أكمل تميز بما في حيز الصلة فهؤلاء المستمعون لأحسن القول الذين هداهم، الله – ﷻ–؛ لأن نفوسهم ذكية طاهرة ، فألهمهم وأرشدهم – ﷻ– إلى اتباع أحسن القول.

" ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ": قصر الهداية عليهم دون غيرهم، وهو قصر صفة على موصوف وطريق القصر تعريف الطرفين، والقصر باعتبار المخاطب قصر تعيين، وطريق القصر تعريف الطرفين، وجملة القصر أفادت الإيجاز والتأكيد.

" هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ " : أي خلق الله نفوسهم قابلة للهدى الذي يخاطبهم به الرسول – ﷺ – فتهيأت نفوسهم لذلك وأقبلوا على سماع الهدى ... وسعوا إلى ما يبلغهم إلى رضاه وطلبوا النجاة من غضبه وليس المراد بهدى الله إياهم أنه وجه إليهم أوامر إرشاده؛ لأن ذلك حاصل للذين خوطبوا بالقرآن فأعرضوا عنه ولم يتطلبوا البحث عما يرضى الله تعالى فأصروا على الكفر، وفيه دليل على أن الهداية من الله.

"وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ" : أي هم أصحاب العقول السليمة بعيدين عن الأهواء وأشارت الآية إلى معنى تهيئهم للإهتداء بما فطرهم الله عليه من

عقول كاملة، وأصل الخلقه ميالة لفهم الحقائق غير مكثرثة بالمألوف ولا مراعاة الباطل، على تفاوت تلك العقول في مدى سرعة البلوغ للإهتداء"[١]

وللتأكيد على مدحهم مرة أخرى عبر باسم الإشارة (أولئك)؛ لقصد تعظيمهم مرة ثانية وفيه دليل على نعمة العقل والفهم لحصول المعارف، عطف بين جملة " وأولئك هم أولوا الألباب "على جملة" أولئك الذين هداهم الله"؛ للتوسط بين الكمالين فالجملتان خبريتان لفظاً ومعنى.

" هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ " : قصر صفة الألباب عليهم قصر صفة على موصوف قصر تعيين وطريق القصر تعريف الطرفين، وأفادت جملة القصر الإيجاز والتأكيد دلت على ثناء الله على عباده المؤمنين ... فصفة اتباع أحسن القول الذي يسمعونه كان لها أثرها للتفرقة بين الحق والباطل وللتفرقة بين الصواب والخطأ.

❁❁❁❁❁

(١) التحرير والتنوير سورة الزمر آية ١٨ صـ ٣٦٧

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين الذي بنعمته تتم الصالحات وترفع الدرجات والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد – ﷺ – وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

ففي ختام هذا البحث أشير إلى أهم ما أمكن التوصل إليه فيما يأتي:

١– تعددت معاني القول في القرآن الكريم بتعدد المواطن التي ذكر فيها، والأسلوب في أغلبها إنشائي وهو التعبير بالفعل الأمر ليدل على العناية والإهتمام بالسامع ، وينبه لما سيلقى بعده وأيضاً بالأسلوب الخبري كما في قوله: "طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ "(١).

٢– تعددت معاني القول بالمعروف بتعدد المواطن التي ذكر منها قوله:

أ) "وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ " (٢) فالقول المعروف في الآية هو إباحة التعريض للمرأة المعتدة من وفاة كقوله إني فيك لراغب، فالمراد بالقول المعروف هو التعريض لا التصريح.

---

(١) سورة محمد آية ٢١.

(٢) سورة البقرة آية ٢٣٥.

ب) وفي قوله: "قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ " (١)، ففي قوله "قول معروف" المقصود بالقول المعروف هو القول الحسن الجميل الذي يرد به على السائل وهو ضد الأذى كقولك للسائل يرزقك الله، يرحمك الله، وهذا القول يدل على عناية الإسلام بالإنفاق وعلى مراعاة شعور المحتاجين والسائلين.

ج) وفي قوله: "وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا"(٢)، فالمراد بالقول المعروف هو قولهم للسفهاء إن صلحتم ورشدتم سلمنا إليكم أموالكم فالولي يعلم السفية أن المال ماله وهو خازن له وإذا زال سفهه رد عليه ماله.

د) وفي قوله: "وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا"(٣)، فالقول المعروف فيها قولهم لغير الورثة من أولي القربى واليتامى والمساكين إن الله – ﷻ– قسم المواريث وهذا يكون سبباً لدخول السرور عليهم لأن أنفسهم تتوق إلى أخذ شيء من الميراث فأمر الله – ﷻ– أن يعطي لهم شيء براً وجبراً لهم.

هـ) وفي قوله "يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا " (٤)،

(١) سورة البقرة آية ٢٦٣.
(٢) سورة النساء آية ٥.
(٣) سورة النساء آية ٨.
(٤) سورة الأحزاب آية ٣٢.

فالمراد بالقول المعروف في الآية أن لا ينتهرن من يكلمهن أو يسمعنه قولاً سيئاً بل يقلن قولاً حسناً جميلاً معروفاً".

و) وفي قوله: " وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُۙ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ ٢٠ طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ "[1]، ففي قوله "طاعة وقول معروف" هذا خبر من الله – ﷻ– عن المنافقين من قبل أن تنزل سورة محمد ويذكر فيها القتال، أنهم كانوا إذا قيل لهم أن الله فرض عليكم الجهاد قالوا سمع وطاعة، فهذا قبل وجوب فرض القتال فعندما فرض شق عليهم وكرهوه.

٣- وصف – ﷻ القول البليغ في قوله تعالى: "فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا وَتَوۡفِيقًا ٦٢ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ٦٣ " [2]، فالقول البليغ هو المطابق لحالهم وهو ان يكون الكلام حسن الألفاظ، حسن المعاني متضمناً الترغيب والترهيب يعظم موقعه في القلب.

٤- القول السديد في قوله تعالى: " يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ

(١) سورة محمد آية ٢٠ – ٢١.

(٢) سورة النساء آية ٦٢ – ٦٣.

وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ "[1]، هو الأقوال الصالحة النافعة كابتداء السلام وقراءة القرآن على الناس، والتسبيح والآذان والأمر المعروف والنهي عن المنكر وتبليغ مأثور الأنبياء والعلماء لإرشاد الغير والصدق وكل ما فيه حق وصواب.

٥- القول الميسور في قوله تعالى: "وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ تَرۡجُوهَا فَقُل لَّهُمۡ قَوۡلٗا مَّيۡسُورٗا "[2]، وهو القول الجميل السهل المقبول للرد على السائل إذا لم يكن عند المسؤل ما يعطيه ، كقولك: الله يسهل، وإذا جاء رزق الله سأعطيك بإذن الله فهذا القول له وقع في النفس والوجدان.

٦- أمرنا الله – ﷻ– عند خطاب الحكام والطغاة بالقول اللين ففي قوله تعالى: "فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ" [3]، فالقول اللين هو الرفق في صورة العرض وأن يقدم الوعد على الوعيد وأن يظهر للمخاطب خوفه عليه ، ويظهر له أيضاً أنه عنده سداد في الرأي ليتقبل الحق ويفرق بينه وبين الباطل ، وأيضاً هذا القول عند خطاب ذوي المكانة الرفيعة حتى يتحقق المراد لأن من عادة الجبابرة أن يزدادوا عتواً وتكبراً إذا غلظ لهم القول ، فيكون خطابهم بالحكمة والموعظة الحسنة وبالترغيب واستدعاء الإمتثال.

٧- عند الكلام مع الناس كان القول الحسن كما في قوله تعالى: "**وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ**

(١) سورة الأحزاب آية ٧٠ – ٧١.
(٢) سورة الإسراء آية ٢٨.
(٣) سورة طه آية ٤٤.

وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ" [(١)]، فكل آداب الدين والدنيا تتدرج تحت القول الحسن في قوله تعالى: "وقولوا للناس حسناً" أي كلموهم كلاماً طيباً من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والحلم والعفو والصفح وكل الأخلاق الكريمة.

٨- وكان القول الكريم في قوله تعالى: " وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا"[(٢)] هو الذي يجمع الفضائل وبه تنال درجة الإحسان إلى الوالدين.

❁❁❁❁❁

(١) سورة البقرة آية ٨٣.

(٢) سورة الإسراء آية ٢٣.

المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم.
٢- الإتقان في علوم القرآن للسيوطي تحقيق محمد أبو الفضل (دار التراث – القاهرة – الطبعة الثالثة ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م).
٣- أثر النزعة العقلية في القصيدة العربية د/ أحمد علي محمد- الأردن – الجامعة الأردنية – ١٩٨٢م.
٤- إعراب القرآن وبيانه، المؤلف: محي الدين بن أحمد مصطفى درويش (المتوفي: ١٤٠٣هـ)، الناشر: دار الإرشاد للشئون الجامعية – حمص – سورية (دار اليمامة – دمشق – بيروت)، (دار ابن كثير – دمشق – بيروت) الطبعة الرابعة ١٤١٥هـ.
٥- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، المؤلف: ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (المتوفى: ٦٨٥هـ)، المحقق: محمد بن عبد الرحمن المرعشلي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت – الطبعة ألولى – ١٤١٨هـ.
٦- البحر المحيط في التفسير، المؤلف: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفي: ٧٤٥هـ)، المحقق: صدقي محمد جميل، الناشر: دار الفكر – بيروت الطبعة ١٤٢٠هـ.
٧- التحرير والتنوير "تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد"، المؤلف: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفي: ١٣٩٣هـ)، الناشر: الدار التونسية للنشر – تونس سنة النشر ١٩٨٤هـ.
٨- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، المؤلف: د: وهبه بن مصطفى الزحيلي، الناشر، دار الفكر المعاصر – دمشق – الطبعة الثانية ١٤١٨هـ.

٩- الجامع لأحكام القرآن تفسير القرطبي، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرج الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفي: ٦٧١ هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية – القاهرة – الطبعة الثانية، ٣٨٤هـ- ١٩٦٤م).

١٠- التوفيق على مهمات التعاريف محمد عبد الرؤوف المناوي، تحقيق د / محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، بيروت الأولى ١٤١٠هـ.

١١- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، المؤلف: أبو العباسي شهاب الدين أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي (المتوفي: ٧٥٦هـ)، المحقق: الدكتور أحمد محمد الخراط، الناشر: دار القلم، دمشق.

١٢- الفروق اللغوية – لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري المتوفى ٣٩٥هـ، حققه وعلق عليه محمد إبراهيم سليم، الناشر دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع – القاهرة – مصر.

١٣- المعجم الوسيط قام بإخراج هذه الطبعة د/ إبراهيم أنيس (الطبعة الثانية – دار الفكر).

١٤- تفسير القرآن العظيم، المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري الدمشقي (المتوفي: ٧٧٤ هـ)، المحقق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية ١٤٢٠ هـ- ١٩٩٩م.

١٥- دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني تحقيق محمود شاكر – الطبعة الثالثة ١٤١٣هـ- ١٩٩٣م.

١٦- زاد المسير في علم التفسير، المؤلف: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفي: ٥٩٧هـ) المحقق: عبد الرازق المهدي، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت – الطبعة الأولى – ١٤٢٢هـ.

١٧- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع تأليف أحمد السيد الهامشي " الطبعة الثانية عشر دار الفكر.
١٨- لباب البديع أ.د / محمد محمد شرشر.
١٩- لسان العرب محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري (ت ٧١١هـ) دار صادر – بيروت – الطبعة الأولى.
٢٠- معالم التنزيل في تفسير القرآن "تفسير البغوي"، المؤلف: محي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (المتوفى: ٥١٠ هـ)، المحقق: عبد الرزاق المهدي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت– الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.
٢١- معاني القرآن، المؤلف: أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي الفراء (المتوفي: ٢٠٧هـ)، المحقق: أحمد يوسف النجاتي محمد علي النجار عبد الفتاح إسماعيل الشلبي، الناشر: دار المصرية للتأليف والترجمة – مصر، الطبعة الأولى.
٢٢- مفاتيح الغيب "التفسير الكبير"، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي خطيب الري (المتوفي ٦٠٦هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٢٠هـ.
٢٣- مقاييس اللغة لإبن فارس، تحقيق عبد السلام هارون – دار الفكر ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م.

فهرس الموضوعات

م	الموضوع	رقم الصفحة
١-	ملخص البحث	١٣٥٩
٢-	المقدمة	١٣٦١
٣-	التمهيد	١٣٦٢
٤-	المبحث الأول	١٣٦٣- ١٣٨٨
٥-	المبحث الثاني	١٣٨٩- ١٤٠٦
٦-	المبحث الثالث	١٤٠٧- ١٤١٥
٧-	المبحث الرابع	١٤١٦- ١٤٣٥
٨-	الخاتمة	١٤٣٦- ١٤٤٠
٩-	المصادر والمراجع	١٤٤١- ١٤٤٣